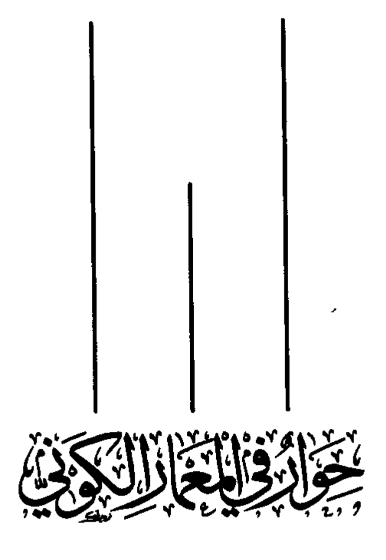


الدكتور عماد الدين خليل

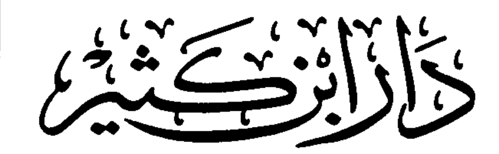



حوار في المعمار الكوني



طبعة دار ابن كثير الأولى

1426 هـ ــ 2005 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ــ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : دراسات إسلامية

العنوان : حوار في المسار الكوني

التأليف : الدكتور عماد الدين خليل

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 168

القياس : 17×24

نوع التجليد : فني سلوفان

الوزن : 0.7 كغ

التنفيذ الطباعي : دار القماطي للطباعة

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد



دمشق ــ حلبوني ــ جادة ابن سينا ــ بناء الجابي

ص.ب : 311 ــ هاتف : 2225877 ــ 2228450 ــ فاكس : 2243502

بيروت ــ برج أبي حيدر ــ خلف دبوس الأصلي ــ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ــ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



تأليف

الدكتور عماد الدين خليل



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم



البعثات التعليميَّة بين السلب والإيجاب



متوالية هندسية.. أليس كذلك؟!

الاثنان يصبحان أربعة، والأربعة ثمانية، وهذه تغدو ستة عشر.. حتى يأتي اليوم الذي سنجد بلادنا ترسل فيه للخارج جيوشاً من الطلبة المبتعثين لاستكمال دراستهم في العالم المتقدِّم.. وقد جاء هذا اليوم فعلاً منذ العقود الأولى للقرن العشرين.

فإذا كان عددٌ كبيرٌ من هؤلاء يعودون وفي أيديهم معاول الهدم لا أدوات البناء؛ فإن لنا أن نتصوّر حجم الكارثة وفداحة الخطب!!.

وكان الأمر قد بدأ هيناً محدوداً يوم أخذت مصر منذ الحملة الفرنسية وعصر محمد علي الذي أعقبها ـ فيما سُمِّي خطأ ببدء النهضة الحديثة ـ ترسل بعثاتها العلميَّة إلى أوروبة لكي تتخصَّص هناك.. وكان توجُّه تلك البعثات ينصبُّ ـ بالدرجة الأولى ـ على حقول العلوم النظرية والتطبيقيَّة، أما العلوم الإنسانية فلم تلقَ توجُّهاً واسع النطاق يومها، ولكن وبمرور الوقت أخذت سيول الطلبة تتدفق على مؤسسات هذه العلوم كذلك، حيث لم يكن في بلادنا ما يغطِّي الحاجة من كليات ومعاهد الآداب والتربية والإدارة والاقتصاد والقانون والسياسة.. إلى آخره.

وفرق كبير بين أن يعود المبتعث وقد تخصَّص في الطب أو الجراحة أو الهندسة أو الفيزياء أو الكيمياء والرياضيات وعلوم حياة.. وبين أن يعود متخصِّصاً في الآداب أو الفنون أو التاريخ أو الاجتماع أو الاقتصاد والقانون والسياسة..

ذلك أن الأخذ عن مدنيَّة الغرب قد يخرِّج علماء حقيقيِّين يخدمون أمتهم، رغم ما يتعرض له الكثيرون منهم من محاولات التخريب التي قد تعيدهم إلى أهليهم، لا لكي يبنوا ويعمِّروا، وإنما ليخرِّبوا ويدمِّروا!!.

ومع ذلك فإن المخاطر هاهنا أقل بكثير منها في الحقل الآخر..

الثقافة.. فهاهنا سيجد الطالب المبتعث نفسه يتلقَّى فلسفة الغرب الماديَّة والعلمانيَّة، وعقيدته ورؤيته للعالم والحياة والإنسان، ويتشبَّع فكره، وهو يدرس التاريخ أو النقد الأدبي أو المذاهب الفلسفيَّة أو الاجتماع أو القانون والسياسة، بالرؤية الغربية التي قد تمسخ شخصيته مسخاً، وتعيده إلينا مبشراً يلبس أردية الكهنوت الجامعي.. وكلُّنا يعلم الدور التخريبيَّ الذي يمارسه المبشِّرون أياً كانوا، والذي يتحرك في تضادٍّ تامٍّ مع أهداف أمتنا وضروراتها البنائية الملحَّة..

إن قضيَّة الابتعاث ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجرى العام لمسألة صراع الحضارات، وكيف أن الحضارات الأقوى هي التي تطوي في جناحيها الحضارات الأقل تحصناً ومناعةً، والأكثر افتقاداً لعناصر شخصيتها المستقلَّة وكيانها المتميِّز... وقد تحدَّث كثير من المؤرخين والفلاسفة عن صيرورة هذا الصراع ونتائجه المحتومة، وكان أبرزهم ولا ريب المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي)؛ الذي حدَّثنا في مؤلَّفه (دراسة للتاريخ) عن الحضارات السبع المتبقِّية من بين بضع وعشرين حضارة طواها التاريخ..

وإن الحضارة الإسلامية هي واحدة من هذه السبع، وإن ستاً منها ـ بما

فيها الحضارة الإسلامية ـ مهددة بالفناء في تيار الحضارة الغربية الأقوى والأكثر فاعلية..

وسواء صح هذا الذي يقوله توينبي أم لا.. فإن ما نراه ونلمسه في واقع تاريخنا الحضاري المعاصر يشير إلى تفكُّك جوانب عديدة في شخصيَّتنا الحضاريَّة وذوبانها، وإلى ضياع الكثير من ملامحنا المتميِّزة، وطغيان قيم الغرب وفلسفته ورؤيته على الكثير الكثير من قيمنا وعقائدنا ورؤانا..

وما من شكٍّ في أن الابتعاث كان واحداً من أشد الوسائل تأثيراً في هذا المصير الذي سيقودنا، إن لم نتوقَّف في الوقت المناسب لمراجعة حساباتنا، سيقودنا إلى الانتحار الكامل والفناء النهائي في كيان الحضارة الغربية.. ويومها لن يكون هناك شيء اسمه (حضارة إسلامية).

والمسألة ـ كما سنرى ـ ليست لغزاً محيراً، ومعضلةً لا حلَّ لها، بل هي واضحة بيِّنة بمجرَّد أن يتوفَّر حسن النية والوعي والإخلاص، وفك الارتباط المخزي بالتوجيه الغربي من خلال صنائعه المنبثة في كوادرنا التربوية والتعليمية، والتي يسعى الغرب من خلالها إلى وضعنا في الحلقة المفرغة التي ليس للخروج منها سبيل.

وها هي بعض أمم وشعوب العالم الثالث كاليابان والصين على سبيل المثال، قدرت بإخلاصها لثقافتها القومية وشخصيتها الحضارية أن تجتاز المحنة بسلام، وأن تعيد صياغة المعادلة لصالحها لا لصالح الخصوم والأعداء.. إنها عرفت كيف تقتبس من الغرب عناصر تفوُّقه العلمي النظري (البحت) والتطبيقي (التقني)، مع الحفاظ في الوقت نفسه على ملامحها الثقافيَّة المتفرِّدة وفلسفتها وتميُّزها.. إنها كانت تبعث بطلبتها لا لكي يأتوها متخصِّصين في التاريخ أو الأدب أو الفلسفة أو الاقتصاد.. قدر ما كانت تبعث بهم لكي يرجعوا إليها مهندسين ورياضيين وأطباء.. وهي فضلاً عن

هذا، كانت تعرف كيف تختار مبعوثيها إلى الغرب، وكيف تراقب سلوكهم واتصالاتهم، وكيف تعزل وتسترجع وتقطع المدد عن أولئك الذين خرجوا عن الخط المرسوم، وارتموا في أحضان هذه العشيقة أو تلك، وهذا النادي أو ذاك.. وزلّت أقدامهم باتّجاه مصيدة ما من المصائد العديدة المنصوبة بحذق لاستضافة الزائرين.

إن برمجة علاقتنا بالحضارة الغربية أمرٌ محتومٌ إذا ما أردنا مواصلة البقاء كأمَّةٍ لها اسمها وهويتها وجواز سفرها إلى العالم.. وهذه البرمجة تتطلَّب عملاً واسعاً في أكثر من ميدان، ورؤية شاملة لكل المساحات التي تمتد إليها هذه العلاقة الخطيرة.. وما من شكٍّ في أنَّ قضيَّة الابتعاث هي واحدة من أهم هذه المساحات..

٢

ومعضلة الابتعاث ترتبط ـ فضلاً عن دائرة الصراع الحضاري الشامل ـ بالهجوم الاستعماري القديم والجديد الذي شنَّه الغرب ولا يزال على بلدان العالم الثالث والإسلامي على وجه الخصوص.. ترتبط بالاستعمار وبخاصة الجديد منه فيما يعرف بالإمبريالية، من حيث إنه يعتمد الغزو الفكري كواحد من أكثر أسلحته مضاءً في تحقيق أهدافه..

وإذا كان المبشِّرون في الماضي هم طلائع الاستعمار القديم فإن العديد من المبتعثين هم طلائع الاستعمار الجديد.. إنها لفرصة ممتازة تجدها مؤسسات هذا الاستعمار ومراكز توجيهه الرئيسية في هذا النفر القادم من الشرق؛ لكي يتلقَّى علوم الغرب وفلسفاته وعقائده ورؤيته للحياة، تستخدم معه لكسب هذا النفر وتحويله إلى أداة طيِّعة لتحقيق أهدافها، كافة الأساليب والوسائل المشروعة وغير المشروعة، التي تبيحها الأخلاق والتي لا تبيحها على الإطلاق.. فالإغراءات كثيرة، والتهديدات والضغوط كثيرة هي

الأخرى، ووسائل التأثير النفسي والفكري والأخلاقي تزداد فاعلية يوماً بعد يومٍ.. وقليلون هم أولئك الذين يفلتون من الحصار، والكثرة الكاثرة تعود وهي تحمل في دمائها جراثيم الداء.. بعضها يحسُّ به فيرجع محموماً يريد أن يدمِّر كلَّ شيءٍ يقف في طريق قناعاته الجديدة، وبعضها الآخر لا يحسُّ به بشكلٍ مباشرٍ، لكنه كجراثيم الملاريا، يعمل فيه ببطء، ثم ما تلبث الشجرة الخبيثة أن تخرج نكدها المرير..

إن الجندي الاستعماري الذي يتجوَّل في شوارع المدن المقهورة، حاملاً سلاحه، موجهاً حربته إلى صدور المواطنين.. الجندي الذي كان يتجمَّع ورفاقه في الثكنات الكبيرة في قلب المدن الإسلامية، يأكل الطعام الطيب، ويتنزه في الحدائق المنسَّقة، ويمارس هواياته المفضَّلة، وهو مطمئنٌّ إلى أن سلاحه سيحميه ويبقيه.. هذا الجندي قد انتهى دوره بزوال الاستعمار القديم.. استعمار الجيوش والعساكر للأرض الإسلامية.. وحلَّ محله اليوم في موجة الاستعمار الجديد جندي من نوع آخر.. إنه واحدٌ من أبناء الشرق أنفسهم.. مواطن مسلم.. لا يلبس «الخاكي» ولا يحمل سلاحاً.. ولكن فكره معبَّأ تماماً بالمتفجرات التي زرعها فيه الاستعمار الجديد يوم كان يدرس هناك، وهي مستعدة للانفجار في أية لحظةٍ يضغط فيها على الزرّ لكي تدمّر القيم والأعراف والمعتقدات، وتقطع الأصول والجذور، وتأتي على الأخضر واليابس، وتفتح الطريق أمام مصالح الغرب الاستراتيجية والاقتصادية، بعد إزاحة كافة الأسلاك الشائكة التي تقف في طريقها.. وهل أقدر من عقائد الأمم والشعوب على منع تسلُّل الغرباء إلى بيوت الناس وعقولهم وأرواحهم؟!.

إن عدداً ليس بالقليل من المبتعثين العائدين من ديار الغرب هم هؤلاء الجنود الجدد.. أدوات رخيصة بأيدي مراكز التوجيه الفكري لحساب الاستعمار الجديد.. لا نقول هذا من قبيل الأحكام المتعسِّفة، والتعميمات

التي لا رصيد لها، والمبالغات التي لا تملك أي غطاء.. ولكننا نقوله لأنه هو الواقع المنظور والملموس، ولأن خلافه هو الباطل والظن والهوى.. ويكفي أن نقوم ببعض الإحصائيات الأولية في جامعاتنا وفي أجنحتها الإنسانية على وجه الخصوص، لكي ما نلبث أن نتبيَّن صحة هذه المقولة وصدقها المقنع.

كلنا ارتطم أيام دراسته الجامعية، أو تدريسه الجامعي، إذا أتيح له أن يصل إلى هناك، ارتطم بواحد أو أكثر من هؤلاء الجنود الجدد.. أدوات الإمبرياليَّة ومطاياها، وعندما نقول: الإمبريالية؛ يتوجَّب علينا ألا نفرّق بين غربيِّها وشرقيِّها.. صليبيِّها وماركسيِّها.. أمريكيِّها وروسيِّها، فكلها ـ في الواقع ـ إمبرياليَّة تسعى من خلال الغزو الفكري إلى توظيف جغرافية العالم لمصالحها وأهدافها..

كل واحدٍ منا ارتطم بواحدٍ أو أكثر من هؤلاء.. لا بل إن في تجربة كل واحد منا مؤشراً يكاد يكون ثابتاً على أرقامٍ متقاربةٍ يتراوح بينها باستمرار لا ينقص أو يزيد إلَّا قليلاً، وهذا المؤشّر يقول بأن سبعة أو ثمانية من كل عشرة من المتخصِّصين العائدين؛ يمارسون الدَّور التخريبيَّ نفسه، من خلال طرائق عمل تكاد تكون متشابهة ومتفقاً عليها للوصول إلى نتائج ـ أغلب الظن ـ أنها قد رسمت سلفاً!!.

٣

والانبعاث يرتبط أيضاً بالصهيونية.

فإذا كانت هذه الحركة العنصريَّة المتمذهبة تقتصر على اليهود، فلا يسارعنَّ أحد بالقول بأن لا لها بابتعاث أو مبتعثين.. ذلك أن لها أجنحة وواجهات تمكِّنها من الانفتاح على العالم كله.. أبناء العالم كله، لكسبهم وتوظيفهم لخدمة الأهداف والمصالح الصهيونية..

إن الماسونية التي تخاطب (الإنسان) في العالم كله، بعيداً عن دينه وأمته ووطنه وشخصيته الحضارية وأصوله التاريخية، هي واحدة من هذه الأجنحة أو الواجهات. . ومحاولة إثبات أو تأكيد العلاقة (الوظيفية) بين الصهيونيَّة والماسونيَّة هي كمحاولة أو تأكيد أن ١+١ يساوي اثنين!!.

والأجدى من هذا هو محاولة تبيِّن طبيعة الدور الذي تلعبه الماسونيَّة وطرائقه وأساليبه، وقد كتب في هذا الكثير. . ويكفي أن نتابع معطيات الماسونيَّة عبر هذا الذي كتب عنها ونقارنها ببروتوكولات حكماء صهيون؛ لكي ما نلبث أن نتبيَّن مدى التناغم في الطرائق والأساليب، ومن ثَمَّ في الأهداف التي تصب فيها هذه وتلك.

إن (الغيتو) اليهودي المقفل على بني إسرائيل، والذي تمكَّنوا بواسطته من حماية عقائدهم وقسماتهم الحضارية كأقلية دينيَّة تضطرب في بحر الشعوب والأمم التي كانت تعيش بين جنبيها. . (الغيتو) المنقفل بأكثر مما يجب، كان يوازيه في الجهة المقابلة تلك الواجهات المنفتحة بأكثر مما يجب. . هناك (اليهودي) وحده، وهنا (الإنسان) أياً كان لونه وشكله ودينه وقوميته والأرض التي ينتمي إليها. . ولكن أي إنسان هذا الذي تريد الماسونيَّة (الإنسانيَّة) أن تكسبه إلى صفوفها؟

إنه مجرد إنسان. . لا اسم له ولا هويَّة ولا شخصيَّة. . تخدعه إغراءات الشموليَّة والإخاء والوحدة العالمية. . إلى آخره. . فيتخلَّى عن ملامحه وخصوصيَّته، ويقع في التعميمات التي يغدو معها مجرَّد رقم مضاف إلى الأرقام. . وما يلبث حكماء صهيون أن يجيئوا لكي يصنعوا من هذه الأرقام الكمِّيَّات الرياضية التي تزيد من رصيدهم في العالم، ولا شيء وراء ذلك. . وعندما يكتشف بعض هؤلاء المخدوعين الحقيقة المحزنة، ويحاولون أن يؤوبوا إلى أنفسهم. . يسترجعوا أنفسهم ـ بالأحرى ـ من خلال العودة إلى

دينهم ورؤيتهم وملامحهم. . توصد في طريقهم الأبواب. . وهنالك في السراديب الكهنوتية يلقنون الدرس الذي يعلمهم كيف أن عليهم ألا يفكروا ثانية في العودة إلى ذواتهم؛ لأنهم أصبحوا في عصر الرقيق الجديد في ملكيَّة السادة الجدد!!.

وإذا كان عدد ليس بالقليل من كبار مثقفينا وعلمائنا قد خدعتهم اللعبة فانساقوا إليها طائعين. . أفنستغرب على أنصاف المثقفين وأرباعهم ممن زُجَّ بهم عن طريق الابتعاث في قلب المجتمعات التي تنشط فيها الماسونية، انتماءهم، هرولةً وركضاً، إلى هذه المنظمة العالمية التي تعدهم بما هو أكثر تأثيراً وسحراً: المال والنساء والمناصب!!. . بإشباع نزواتهم وشهواتهم حيثما تطلَّب الأمر إشباعاً؟!

وكثيرون هم أولئك العائدون من الخارج الذين وجدوا الطريق أمامهم مفتوحاً، فصعدوا على حين غفلة إلى أعلى المناصب، وأتْخمت جيوبهم ـ فجأةً ـ بالمال. . وكثيرةٌ هي القوائم التي كشف عنها النقاب، لهذا السبب أو ذاك، فإذا بمعظم أفرادها الماسونيين هم من أولئك الذين كانوا قد بعث بهم يوماً إلى بلاد العالم المتقدم؛ لكي يعودوا إلى بلادهم فيرتقوا بها صعداً من خلال خبراتهم وتخصُّصهم. . فإذا بهم يسعون للانتكاس بها وتوظيفها من أجل مصالح وأهداف الخصوم والأعداء.

وغير الماسونية، واجهات وأجنحة أخرى تعمل في خدمة بني إسرائيل، خذوا مثلاً النوادي الليلية. . إن المال والنساء اليهوديين يعرفان كيف يحيلانها إلى مصائد ذات فاعلية كبيرة في جرِّ أرجل الكثير من المبتعثين إلى الغرب. . وبعد أن تُجرَّ الأرجل، وما أسهل أن تجرَّ. . تفرغ الأفكار وتجري هناك عمليات غسل ليس للجيوب فحسب، ولكن للعقول أيضاً. .

ففي حَمْأة الرقص والموسيقى، أو الخمر والميسر، والزنى والشذوذ. . لا يمكن لعاقل إلا أن يفقد عقله. . ولحليمٍ إلا أن يغدو حيرانَ!!.

٤

والشيوعية هي الأخرى تسعى إلى توظيف عملية الابتعاث لتحقيق أهدافها ومصالحها في بلدان العالم الثالث.. وتبلغ بها الصراحة في هذه المحاولة حدّاً دفع بعض الدول النامية إلى رفض إرسال أي واحدٍ من مبتعثيها إلى هناك، أو على الأقل عدم الاعتراف بشهاداتهم العليا..

إن الجامعات الشيوعية تعتمد من المناهج والبرامج والدروس والمفردات ما يستهدف تحويل أفواج المبتعثين إلى الشيوعية، ومنحهم القناعات الكافية بانتمائهم الجديد، وإعادتهم إلى بلادهم رتلاً خامساً أو سابعاً بشكل أدقّ، إذا اعتبرنا عملاء الإمبريالية والصهيونية هم الأرقام الخامسة والسادسة التي نكبت بها بلادنا!! وإن الأمر ليبلغ بتلك الجامعات حدَّ النشاط الدعائي المكشوف الذي يتجاوز كافة الأعراف والتقاليد الأكاديمية المحترمة.. والذين يرفضون التجاوب مع هذه النبرة الدعائية يحاصرون ويمتحنون، ولا يحظون بالهدف الذي جاؤوا يبتغونه.. التخصُّص الجادّ في الفرع الذي أرسلوا ليتابعوا دراساتهم فيه..

ويعود هؤلاء المبتعثون في عالم الماركسيّة إلى بلادهم وهم يحملون ثلاث خطيئات: علماً ناقصاً.. وعمالةً مرذولةً.. واندفاعاً محموماً لتدمير وإبادة كل ما يعطي أمتهم ملامحها المتميّزة.. ووطنهم شخصيّته المستقلة.. من أجل أن يخرجوا بها من الأصالة إلى التبعيّة، ومن الخصوصيّة إلى العموميّة، ومن النوعيّة إلى الكمِّيَّة.. حيث تَوظف على طريق المطامع الروسية الجديدة التي خلعت رداءها القيصري الاستعماري القديم ولبست بدلاً عنه رداءً ماركسياً جديداً رأت أنه أكثر قدرة على مدّ الأرض الروسية إلى آفاق أبعد، وصولاً إلى المياه الدافئة التي كان يحلم بها إسكندر ونيقولا!!

سعى القياصرة إلى تحقيق الهدف بالأيدي الروسية، فقطعوا نصف الطريق.. وجاء حكام روسية الجدد لكي يواصلوا المسيرة معتمدين هذه المرة على الأمميِّين أنفسهم!! أبناء الشعوب المنكودة..

وأعرف أستاذاً جامعياً حصل على شهادته العليا في التاريخ الإسلامي من جامعة إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي، على يد أستاذ أذربيجاني ماركسي الملامح والقسمات.. وعاد الأستاذ إلى بلده لكي ينشر أطروحته التي أمليت عليه هناك.. (البابكية انتفاضة الشعب الأذربيجاني ضد الخلافة العباسية)..

ويقرأ الناس أطروحته من ألِفِها إلى يائها، فلا يجدون فيها إلا هجوماً متواصلاً محموماً ضدَّ كل ما هو عربي مسلم، وإلا دفاعاً عن كلّ حركة شعوبيَّة كانت تريد شرّاً بالعرب والمسلمين..

إن هذا الأستاذ هو واحد من عشرات غيره جاؤوا بعد رحلة الابتعاث البائسة لكي يكتبوا بأيدٍ غير أيديهم، ويتكلَّموا بألسنة غير ألسنتهم.. ويهتفوا ـ إذا اقتضى الأمر ـ بحناجر غير حناجرهم!!.

٥

إذا تكلَّمنا بحساب الموازين التجارية لكي نقرِّب المسألة إلى الأذهان؛ فإننا نستطيع القول بأن الميزان ليس لصالح المبتعثين إلى العالم المتقدِّم.. وما أكثر الأسباب وراء هذا الانحراف في الميزان!!

ففيما عدا قلَّة من الذين يذهبون إلى هناك وهم يحملون قدراً من الحصانة الفكريَّة والنفسيَّة والأخلاقيَّة، تمكِّنهم من مجابهة الضغوط والاستجابة لتحدياتها، والخروج من المعركة سالمين.. فإن الأكثرية الأكبر لا تملك أي قدر من هذه الحصانة.. ومن ثم فهي غير قادرة على مجابهة الضغوط.. إنها بالفراغ الفكري، والخواء الأخلاقي، وانعدام الوزن

النفسي.. ستنكمش وتتكسر لدى أول لقاء.. وحرام علينا أن نجازف بإرسال هذه النماذج قبل إعدادها الإعداد الكافي.. إننا ـ والحالة هذه ـ كمن يختار أن يرمي بها لكي تنتحر هناك.. إن الغواصين الذين يتوغَّلون في البحر إلى عمق يفوق قدرتهم على تحمل الضغط يتعرَّضون للهلاك، وإن المبتعثين الذين يرمى بهم إلى بحار أوروبة يراد أن يخرجوا سالمين من أعماق لم يهيؤوا أساساً للغوص فيها!!

ما الذي يحدث هناك؟

إن القوى التي أشرنا إليها، والتي تسعى لتوظيف حركة الابتعاث لتحقيق أهدافها ومصالحها على حساب الأمم التي قدم منها هؤلاء المبتعثون.. هذه القوى تعتمد من الأساليب والإمكانيَّات وطرائق التأثير ما يعجز عنه الوصف والإحاطة، وما يجعل المعركة بين الطرفين غير متكافئة على الإطلاق..

ولقد جاء العصر الحديث بثورته الثقافية الكبيرة لكي يتقدَّم خطوات واسعة في قدرة أساليب الصراع الفكري والنفسي وفاعليتها..

هنالك أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون ومسرح وسينما وإعلان، وقد تقدَّمت هذا التقدم الفني المذهل، وتحركت كالأخطبوط لكي تمد أرجلها السبعة إلى كل مكان، وتفرض هيمنتها على كل ميدان من ميادين الحياة الشاملة المعقدة المتشابكة.. والمبتعث يجد نفسه محاطاً بهذه الأجهزة حيثما تنقلت به الخطا، وحيثما انتهى به المطاف.. لا بد أن يسمع.. ويرى.. ويحس.. ويتفاعل.. ويأخذ.. ويتجاوب.. إن الطرق المستمر يلوي حتى الحديد.. فكيف بالنفس البشرية التي يزداد طَرْق الإعلام عليها صباح مساء، وبأكثر الأساليب والصيغ إثارةً وإغراءً..

ألَا تلتوي هي الأخرى، ويعاد تركيبها من جديد وفق المسارات والقوالب التي تستهدفها أجهزة الإعلام؟!.

هناك التأثيرات الفكرية؛ وهي تأثيرات تنبثق في صميم المؤسسات والمعاهد والجامعات التي ذهب المبتعثون للدراسة فيها.. سيما إذا كانت دراساتها تنصبُّ على الحقول الإنسانية.. ها هنا من خلال المناهج والمحاضرات وطرائق التدريس والأساتذة المتخصِّصين، تجري بالنسبة للطالب المبتعث عملية غسيل للمخ من نوع مهذَّب ـ إذا صح التعبير ـ؛ فإذا كانت المؤسسات البوليسيَّة تمارس عملية غسيل المخ بصيغها الحادة، والوحشية، المناقضة لكرامة الإنسان وحريته واختياره.. فإنها على المستوى الأكاديمي تتم بهدوء يتضمن قدراً كبيراً من الاحترام للعقل البشري.. ولكنه احترام خادعٌ لأنه يقود ـ على أية حال ـ إلى النتيجة نفسها في كثير من الأحيان: غسل مخ الطالب المبتعث، وحشوه بما يريده رجل الغرب ومصالح قياداته العليا؛ ابتداءً بالتقبُّل الكامل لأسس الثقافة الغربية ومواضعاتها وفلسفتها ورؤاها، وانتهاءً بالعمل المستمر ـ بعد العودة ـ على التبشير بهذه الثقافة، وهدم كل ما يقف في طريقها..

غسل الغربيون عقولهم.. فجاؤوا لكي يغسلوا بدورهم عقول تلامذتهم في جامعاتنا.. ولبس مبشِّرو الغرب أردية الكهنوت النصراني، وجاؤوا ليمهِّدوا الطريق للاستعمار القديم.. فلبس هؤلاء أردية الكهنوت الأكاديمي وعادوا ليمهدوا الطريق للاستعمار الجديد!!

هنالك ـ أيضاً ـ التأثيرات النفسية والاجتماعية، حيث يزيد الإحساس بالغربة والضرورة الملحة في الانتماء إلى البيئة الجديدة والتكيُّف معها والاندماج فيها.. يزيد في الاستعداد النفسي والاجتماعي (للتقبل) الذي يبدأ هيناً ميسوراً، ثم ينتهي لكي يشمل جلَّ أنماط السلوك وطرائق التفكير..

يبدأ بالتقليد الشكلي في الملابس والمظاهر واللغة وبعض العادات والتقاليد، ثم يمتد لكي يحتوي الشخصية ويأخذ بتلابيبها.. ومن خلال

المناسبات الاجتماعية وبيئات العمل والترفيه يذوب المبتعث المتغرب شيئاً فشيئاً، ويصبح ليس فقط على استعداد لتقليد الغربيِّين الكامل في دقائق حياتهم وتفاصيلها، وإنما للمزايدة عليهم وتجاوزهم لكي ما يلبث أن يكون ملكياً أكثر من الملك. .

ونحن جميعاً نعرف طرفاً من هذه (التحف الشرقية) التي أرادت ـ قسراً ـ أن تستبدل بخزفها الأصيل ونقوشها الهادئة المنسابة. . بلّوراً وكريستالاً. . فأصبحت لا هي بالخزف، ولا هي بالبلّور والكريستال. .

أصبحت مهرجاناً من الأشكال والألوان لفّقت تلفيقاً مصطنعاً، فلم تعد تصلح لأن تزيَّن بها الدور والمحلات. . لم تعد تصلح إلا في باحات السيرك وأروقة البهلوانات. . ديكورات، وإكسسواراً!!.

وثمة أخيراً، وليس آخراً، محاولات التدمير الأخلاقي. . تفكيك كيان المبتعث حتى آخر مسمار فيه. . في مجتمع أصبح شرب الخمر والحشيش كتناول الخبز والماء. . وغدا الاتصال المحرم بين الرجل والمرأة كركوب سيارة أو قطار. . وقد يتم هذا التدمير والتفكيك والاستنزاف عفوياً. . وقد يخطط له لجرِّ أقدام الذين أبدوا بعض المقاومة، والنتيجة في كل الأحوال سواء: أن يرجع إلينا هؤلاء وقد استنزفوا حتى النخاع، وأصبحوا مستعدين لأن يبيعوا حتى ضمائرهم وأوطانهم من أجل إشباع شهوة غامرة أو نزوة عابرة. . والذين يحاولون أن يمارسوا الحرام في السرِّ، لسبب أو آخر، ويسعون إلى تغطيته كي لا يؤثِّر على مراكزهم الاجتماعية في بلادهم. . تتولّى أجهزة التقاط الأسرار الكشف عن الأسرار؛ فما تزيد هؤلاء الوجلين إلا وجلاً، وما تزيدهم إلَّا خضوعاً لمن يقدر على هتك الحجاب فيعرِّضهم للدمار. .

أدوات. . على أية حال من الأحوال. . والذي يستعبد نفسه لشهواته تهون نفسه عليه، وتصبح أكثر استعداداً لاستعباد الآخرين. .

وفينا من المبتعثين من لا تزال المشكلة الجنسية تؤرقة ليل نهار، بسبب من الظروف المعقدة الصعبة التي يعيشها المسلم، والتي لم يأذن بها الله ورسوله.. فما أن تطأ قدما الواحد منهم ديار الغربة حتى يصبح على استعداد من أول لحظة لأن يقاد من فرجه!! أما عقله وضميره فإنه يهبهما لهم يفعلون بهما ما يشاؤون..

ويخطر على البال هنا، من بين حشد كبير من الوقائع والنماذج، ذلك الضابط الطيار الذي استهوته أميركية حسناء يهودية الهوى والانتماء، فقادته بطائرته الميغ ١٧، قبل معارك حزيران ١٩٦٧م، إلى إسرائيل، وأغلب الظن أنه لا يزال يعمل هناك، ويقال: إنه كان واحداً ممن انقضُّوا بطائراتهم على المواقع العربية الغافلة في الصباح الحزين..

ويخطر على البال كذلك ـ وفي مقابل هذا ـ ما حدَّثني به ضابطٌ كبير القدر ومؤرخ معروف، من أنه ذهب إلى إنكلترة في الأربعينات؛ مبتعثاً لدورة في العلوم العسكرية: دخلت الغرفة التي أعدت لمنامي ـ يقول الرجل ـ فإذا بإنكليزية حسناء تسوِّي أغطية السرير، فأشحت بوجهي عنها، وأدرت ظهري لها ريثما تتم مهمتها، ولكن مهمتها طالت بأكثر مما يجب، ولمحتها بطرف عيني تعبث بالملاءة ثم تعيد صقلها من جديد.. فلما لم تلقَ مني ما يشير إلى شيء.. أكملت مهمتها ووقفت حذو السرير وسألتني: أثمة شيءٌ آخر؟ أجبتها بخشونة: كلَّا.. وأحذِّركِ مرَّة أخرى أن تعيدي اللعبة إياها.. اخرجي..

في اليوم الثاني استدعاني الضابط الإنكليزي المسؤول عن الدورة..

وهنَّأني وكتب إلى قيادتي في العراق تقريراً مترعاً بكلمات التقدير والاحترام!!

أما الضباط الآخرون فيبدو أن بعضهم وقع في المصيدة التي كان ريقهم يتحلَّب لطعمها اللذيذ، والتي نُصبت لهم بمهارة لكي تحيلهم إلى أدوات بأيدي الشياطين..

وأغلب الظن أن الضابط الإنكليزي وجد نفسه إزاء الرجل الشهم أمام أمر واقع فما كان منه، تغطية للّعبة، إلا أن بعث بتقريره المذكور..

ترى كم واحد من أمثال هذا الرجل لم يخونوا الله في بعثتهم، فقطعوا الطريق على مراكز التوجيه في ممارسة جريمة توظيف حركة الابتعاث لتحقيق المصالح والمنافع والأهداف؟!

استطاعت الأمريكية أن تقود الضابط الأول من فرجه لكي يهرب بطائرة عربية ثم يُغِير بها على بني قومه.. ولم تستطع الإنكليزية أن تخترق جدار الإيمان الصلب الذي تميَّز به الضابط الثاني، فقدم لأمته كتاباً عن (اليهود ومعركة المصير) يحذرها فيه من احتمالات قيام إسرائيل بشنٍّ حربٍ كاسحة، ويحدد على ضوء خبرته العسكرية موعد هذا الهجوم.. فلم يستمع إليه أحد.. لأن العرب لا يقرؤون ـ كما يقول موشي دايان ـ وكان ما كان!.

٦

إن هذه الحادثة النموذجية تحتِّم علينا ألا نقع في خطأ التعميم، وألا نغرق في التشاؤميَّة.. فثمَّة في أفواج المبتعثين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ورحلوا إلى الغرب لا لكي يقبسوا علمه ومناهجه، محافظين على عقيدتهم وشخصيتهم ورؤيتهم فحسب، بل أن يمارسوا بدورهم التأثير المعاكس، فيحاربون في الساحة الغربية دفاعاً عن عقيدتهم، ويحقِّقون لها الكثير من المكاسب والإنجازات..

ولكن هؤلاء ـ على أية حال ـ قلَّة بالنسبة للأكثريَّة التي تحدَّثنا عنها.. إنها أشبه بحالة استثنائية تشذ عن القاعدة.. والقاعدة هي التي تهمنا ـ هاهنا ـ بالدرجة الأولى..

ويزيد الأمر سوءاً أنه قد رُتِّب ـ على ما يبدو ـ بين الطرفين.. بين مراكز التوجيه في العالم المتقدِّم، وبين بعض قياداتنا في العالم الإسلامي، وفق

خطَّة (الكمَّاشة) المحكمة.. فلا يبتعث إلى الخارج ـ في الأعم الأغلب ـ إلا من يملك استعداداً للإسهام في اللعبة وتقبُّل نتائجها، ولا تفتح أبواب العمل الثقافي أو السياسي أو الإداري بعد العودة ـ في الأعم الأغلب ـ إلا للنماذج إياها.. بينما توصد الأبواب وتوضع الحواجز والعقابيل أمام العناصر الإيجابية ذهاباً وإياباً.. وبمرور الزمن يزداد عدد أولئك العائدين من ديار الغربة وقد حصلوا على الشهادات العليا.. نعم.. ولكنهم هزموا في كل شيء: في ضميرهم وأخلاقهم وفكرهم ونفسيَّتهم.. يزدادون عدداً، ويتحركون، أو يُحرَّكون، لتغطية وإشغال جلّ الكوادر المتقدّمة في ميادين النشاط المختلفة؛ فيقومون بدورهم، طوعاً أو قسراً، بإرسال أرتال جديدة من المبتعثين على غرارهم تماماً.. دونما فحص أو اختبار أو تمحيص.. لكي يذهبوا إلى هناك فيكسبوا، لا أقول العالم، ولكن قطعة صغيرة من أرضه.. ويخسروا أنفسهم.. وماذا ينفع الإنسان إذا كسب العالم وخسر نفسه؟!

إنها ـ إذن ـ الحلقة المفرغة التي تزداد اتساعاً وإحكاماً يوماً بعد يوم؛ لكي تستوعب المزيد من أفواج المهزومين والمأزومين.. فهل إلى كسرها من سبيل؟!

٧

نعم.. وبكل تأكيد..

وبمجرَّد أن يتوفر الإخلاص وحسن النيَّة والوعي النافذ العميق..

فثمة ـ كما ذكرنا في بدء هذا العرض ـ نوعان من الدراسات يتوجَّه الطلبة المسلمون إلى الخارج لاستكمال تحصيلهم فيها.. الدراسات الإنسانية (كالأدب والتاريخ والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية والقانون.. إلى آخره)، والدراسات العلمية البحتة والتطبيقية (كالهندسة

بفروعها المختلفة والطب والكيمياء والصيدلة وعلوم الحياة والرياضيات والفلك والعلوم الزراعية.. إلى آخره).

ولأكثر من سبب يبدو ـ كما مرَّ بنا ـ ألَّا ضرورة لابتعاث المسلمين لاستكمال دراساتهم في حقول الدراسات الإنسانية، وبالعكس فإن سعيهم لاستكمال الدراسة في الحقول العلمية البحتة والتطبيقية، يغدو ـ وفق شروط معينة ـ ضرورة ملحَّة.. ذلك أن حقول الدراسات الإنسانية بكافة فروعها إنما تستند في تفاصيلها وجزئياتها على قاعدة فلسفية شاملة، ورؤية عقيدية أو فكرية (إيديولوجية) تكون بمثابة الضابط الموجّه والدليل لكافة الجزئيات في أي حقل من حقول هذه المعارف.. ومن ثم فإن التأثيرات الفكرية والعقيدية والفلسفية وإسقاطاتها في العقول والنفوس، تصوراً وسلوكاً، لا بد أن تفعل فعلها لدى الطلاب الدارسين، بحيث يضطرون في معظم الأحيان إلى تقبُّل هذه الأسس الفلسفية والفكرية بدرجة أو أخرى على حساب عقيدتهم الإسلامية وفكرهم الإيماني، ويعودون إلى بلادهم وقد مسخوا بالصيغة التي أرادتها لهم الجامعات والمؤسسات التي درسوا فيها هذا العلم الإنساني أو ذاك.. وما أكثر ما جرَّ هؤلاء الوبال على أبناء أمتهم المسلمة بعد عودتهم إلى بلادهم وهم يحملون فكر الغرب العلمانيّ وعقائده المادية ورؤاه المنفعية الصرفة.. عادوا لكي يخَرِّجوا ـ بدورهم ـ أجيالاً أكثر انحرافاً عن جادة الإسلام وبُعداً عن صراطه المستقيم.

ومهما تحصَّن الطالب بالثقافة الإسلامية قبل أن يذهب إلى الخارج، ومهما توغَّل حسُّه الإيماني في أعماق فكره ونفَسه ووجدانه، فإنه في ظروف الغربة والضغوط النفسية والفكرية والتهديد بالمستقبل، والإغراء بأشد الأساليب خبثاً ومكراً.. إنه لا بد أن يتقبَّل قدراً من التأثيرات (السلبية) قد تشوِّه رؤيته الإسلامية وتبعد إلى مناطق الشك والظلال بعضاً من قناعاته وبداهاته السابقة..

فإذا ما تذكَّرنا أن العالم الإسلامي في الربع الأخير من القرن العشرين هو غير ما كان في الفترات التي سبقت ذلك، فيما يتعلَّق باتساع مجال الدراسات الإنسانية، وانتشار الجامعات والمعاهد ومؤسسات التخصُّص العالي، أدركنا كيف أنه ليس ثمَّة ضرورة لإرسال الطلبة المسلمين إلى الخارج لاستكمال دراساتهم في حقول المعارف الإنسانية.. اللهم إلَّا إذا أريد بذلك منح المسلم، بعد تمكُّنه الأصيل من فكره الإسلامي وعقيدته، وبعد اجتياز مراحل متقدِّمة في دراساته الإنسانية، منحه فرصة الاطلاع على الجانب الآخر من الفكر الوضعي والعقائد المضادة؛ لكي يمتلك القدرة على المقارنة والنقد والمجابهة الواعية.

وعلى العكس من هذه الحقول؛ تبدو ضرورية جداً مسألة إرسال طلبتنا إلى الخارج لتلقي دراساتهم في حقول العلوم النظرية والتطبيقية التي أشرنا إلى بعض فروعها.. فممَّا لا ريب فيه: أن الغرب يتفوَّق علينا بمدى بعيد في مجال تقدمه العلمي والتقني، وأنه مهما تقدمت الدراسات العلمية والتقنية في بلادنا، وانتشرت مؤسساتها ومعاهدها، ومهما اتسع نطاق التعليم الجامعي في هذا الميدان، فإن الغرب سيظلْ، لعدة عقود قادمة على الأقل، هو صاحب السبق والريادة في هذا المجال.. ولمن يريد أن يدخل معه في السباق الحضاري المرجو؛ أن يذهب إليه كي يرشف من النبع نفسه، ويتعلم فنون العلم الغربي من مصادرها الأصلية، ومن خلال مستوياتها العليا، من أجل تضييق الفاصل الزمني وكسب الوقت، وتحقيق الإنجاز بزمن قياسي.

ثم إننا يجب أن نفرِّق، بشكل حاسم، ونحن نرسل طلبتنا إلى الخارج، بين العلم نفسه، وبين فلسفة العلم، ولنا في الأولى أن نأخذ وبأسرع وقت ما نقدر على أخذه، أما في الثانية، حيث التصورات والقيم والفلسفات والرؤى المجافية لفكر الإسلام، المضادة لعقيدته، المناقضة لبداهاته وقناعاته، فإن علينا أن نشعل الأضواء الحمراء كيلا تذوب شخصيتنا

وينمحي وجودنا ونصبح مجرَّد أتباع، أو مسوخاً للغربيين تعجُّ بلادنا بالمهندسين والأطباء.. ولكنها تفتقد العقيدة والسمة والملامح!!

وكذلك علينا، ونحن نبعث بطلبتنا إلى الخارج لمواصلة دراساتهم في ميادين العلوم البحتة والتطبيقية، أن نتحرك على ضوء برنامج عمل ذي معايير دقيقة؛ كي لا نعرضهم هناك للضياع. معايير تتعلق بالعمر المناسب ومدى الحصانة والفاعلية اللتين تحددهما سلسلة من الاختبارات.. كما تتعلق بالبيئة التي سيبعث إليها بهؤلاء، والتي يتوجب اختيارها جيداً على ضوء دراسة عميقة للعلاقات الدولية والظروف الحضارية.. وحيث يمكن تحقيق قدر من التكيُّف لاستغلال المتغيِّرات العالمية لصالح حركة الابتعاث.. فنحن نستطيع ـ على سبيل المثال ـ تفضيل اليابان في حقل الكهرباء وفرنسة في حقل الذرة على أمريكة، إذا كان المبتعثون إليها سيتعرضون لضغوط الصهيونية وأحابيل التخطيط الإمبريالي.. ونحن نستطيع ـ على سبيل المثال أيضاً ـ تفضيل الصين الشعبية في حقل زراعة الحبوب على الاتحاد السوفياتي؛ حيث يراد بالدارسين فيه أن يتحولوا إلى أدوات لتحقيق المصالح الروسية.. وهكذا..

ولن ننسى هنا أيضاً الإشارة إلى ضرورة وضع أجهزة دقيقة وفاعلة للرقابة على سلوك المبتعثين هناك؛ يمكن أن تلحق بالمؤسسات الدبلوماسية أو القنصلية، وتحديد قدر من ضوابط الجزاء والعقاب.

٨

وإنها لفرصة ثمينة أن يجد المبتعث المسلَم نفسه في مجتمع جديد، غير إسلامي، لكي ما يلبث أن ينطلق، بالتنسيق مع سائر إخوانه المبتعثين، لكسب الوقت والإفادة من الفرصة من أجل إيصال صوت الإسلام، وتقديم فكره الأصيل إلى المجتمعات التي لا تعرف عنه إلا القليل، المشوه المبتور.. وخاصة إذا ما تذكرنا كيف أن التأثيرات الصليبية والشيوعية

والصهيونية والاستعمارية، تعمل عملها الدعائي والثقافي العنيد المستمر لتدمير كل ما هو إسلامي داخل تلك المجتمعات وخارجها..

ولكن مما قد يوازن مسألةِ الصراع ضد هؤلاء الخصوم الذين يتميزون بالشراسة والماكيافيلية والخبث، أن مجتمعات العلمانية والمادية، أخذت تعي أكثر فأكثر حجم مأساتها، وتلتاع، أكثر فأكثر، بالعذاب الذي تمخَّض ويتمخَّض دائماً عن كل تجربة لا تحسب للموقف الديني أيما حساب جاد..

إن تزايد هذا الإحساس أو تعمُّق ذلك الوعي قد يمنح الإسلام فرصة جيدة في صميم تلك المجتمعات؛ تمكّنه، ليس فقط من تحقيق قدر من التوازن في القوى عبر صراعه ضد الخصوم، ولكن ـ أيضاً ـ بالتفوق عليهم واتخاذ مواقع الهجوم بدلاً من الاكتفاء بالدفاع وردّ الشبهات.. وتلك هي مهمة المبتعثين الذين يعايشون تلك المجتمعات السنين الطوال، ويصبحون أقدر ـ بمرور الوقت ـ على التواصل والتحاور معها.. على غزوها في صميم قناعتها وتجاربها.. من أجل إعلاء كلمة الإسلام في عالم أصبح أكثر استعداداً لتقبل تجربة هذا الدين العظيم من أي وقت مضى.

إنه يتوجَّب على المبتعث المسلم أن يعمل، أو يجاهد بعبارة أدق، على مستويات ثلاثة؛ لكي يتحقَّق بالحد الأقصى في فاعليته العقيدية هناك في المجتمعات التي وجد نفسه فيها:

أ ـ جهاد النفس بكل ما يقتضيه من دفوع وإرادة وعزم ومقاومة..

ب ـ الجهاد مع إخوانه في نطاق مجتمعاتهم الإسلامية الخاصة؛ كي تزداد الأواصر، وتتمكن التجربة في الأرض الجديدة، وكي تنسق الطاقات، وتحمى من كل ما من شأنه أن يهددها بالتفكك والتبعثر والضياع..

جـ - الجهاد في صميم المجتمع العام غير المسلم.. وتلك هي النتيجة التي تتمخَّض عن قدرة المبتعث على تحقيق النجاح في المجالين السابقين.. وها هنا يمكن للمبتعث أن يستخدم كل أسلوب ممكن لتحقيق المهمة التي عاهد الله على أدائها بالأمانة المطلوبة والعزم الصادق الأكيد..

فإذا أتيح للمبتعث أن يرجع إلى بلاده، عاد وهو أكثر وعياً وأعمق إدراكاً لمتطلبات الدعوة.. قديراً على مجابهة التحدِّيات والتفوُّق عليها.. فها هو ذا في صميم مجتمع تجسَّدت فيه وبشكل مكثَّف كافة الشرور والمآسي التي لا يكاد العالم الإسلامي - على شروره ومآسيه الكثيرة - يعاني عشر معشارها.. ومن ثمَّ فهو أقدر على تبيان الخطأ والصواب وإقناع الخصوم بصواب موقفه وجدواه.

إن الرحيل يعلِّم كثيراً.. يفتح آفاق الذهن، ويمنح الإنسان مرونة فذَّة في التعامل مع الأشياء والحكم عليها.. وليس من جرَّب كمن لم يجرِّب.. فكيف إن انصبَّ ذلك على أرضية من الفكر المستنير والرؤية العقيدية الشاملة؟ إن الرحيل حينذاك سيزيد قدرة المسلم على العمل المرن الواعي البصير، ويمنحه سلاحاً أكثر مضياً حيثما يتوجب البتر، وفي الإقناع حيثما يتوجب الإقناع..

إن المبتعثين العائدين من الخارج، وقد عايشوا التجربة هناك جهاداً من أجل التحقق الأعمق بالإسلام، ومن أجل المجابهة الأكثر فاعلية ضد خصومه.. إنما هم نماذج جيدة قد تحقّق لأوطانها - إذا استمرت على العطاء - الكثير مما لا يمنحه أولئك الذين اضطرتهم الظروف، أو اختاروا - لسبب ما - أن يظلُّوا في بلادهم..

وثمة الكثير من المشاكل الفكرية والنفسية والاجتماعية التي يواجهها المبتعث المسلم في البلاد الغربية، منها على سبيل المثال لا الحصر وكما

مر بنا: التأثيرات الإعلامية، الضغوط الثقافية المضادة، الحصار النفسي، الغربة والحنين.. التهديد بالضمانات المعيشية.. الإغراءات اللاأخلاقية في مجتمع عار مفكك تتبذل فيه الشهوات وترخص حتى تكاد تصبح خبز الإنسان اليومي..

ولكنَّ الضغوط المتزايدة، وفي حدودها المعقولة، قد تدفع الإنسان المسلم هناك، إلى نوع من الغيرة، من الاعتداد بالذات، من القدرة على المقاومة، من الرغبة الممتعة في الاستجابة للتحدي والرد عليه بمزيد من الانضباط والاستعلاء، والتوحُّد والمجابهة.. إن الصراع سيغدو آنذاك رغم تكاليفه الباهظة، ممارسة يومية متحدِّية ممتعة، وإننا لنتذكر هنا مضمون واحد من أحاديث الرسول عليه السلام.. إن المسلم كلَّما غضَّ طرفه عن النساء كلَّما ازدادت في قلبه حلاوة الإيمان!!

وإنها لحلاوة حقاً يستشعرها كل من كتب عليه أن يقاوم في صميم النار، فيعرف كيف يخرج منها متطهِّراً نقياً، دون أن تصيبه بالحروق..

إن الحل المناسب للمشكلات التي يعانيها المبتعث هو هذا: المزيد من تأصيل الذات، والتحقق بما سمّاه الرسول عليه السلام (الجهاد الأكبر)؛ أي: المقاومة على مستوى النفس، ولا بد أن ينضاف ذلك إلى سعي جاد على مستوى آخر.. مستوى الجماعة الإسلامية المتواجدة في بلاد الغرب؛ لتحقيق قدر أكبر من التنسيق بين الطاقات وتجميعها، وتنظيمها، من أجل أن تصب في البؤرة الواحدة، فتكون أكثر فاعليةً وعطاءً.. تعرف كيف تحرق وتنير في الوقت نفسه!!

فالذئب لا يأكل من الغنم إلَّا الشياه القاصية..

وصدق رسول الله.

حوار في المعمار الكوني

١

إن إحدى الخصائص الأساسيَّة التي تفرق الإسلام عن سائر المذاهب البشريَّة تكمن في النظرة إلى المعمار الكوني.

إن الإسلام يراه بنياناً مركباً يتضمن المادّي واللامادّي، المنظور والغيب، الظاهر والباطن، الذي يمكن أن نتعامل معه بالحواس، والذي لا يمكن التعامل معه إلّا بوسائط أخرى غير حسيَّة؛ بدءاً بالعقل وانتهاءً بالوحي الإلٰهي، مروراً بقوة الروح!

هذا بينما تراه المذاهب الأخرى بنياناً مسطحاً ذا وجهٍ واحدٍ ومضمونٍ غير مزدوجٍ؛ فهو ذلك البنيان المادّي المنظور، الظاهر، الذي تقدر الحواس على التعامل معه، والكشف عن أسراره ومعمياته!

٢

يرى الإسلام في المعمار الكوني طبقتين، تبرز إحداهما بمواجهة الحواس، وتغيب الأخرى.. تغيب عن الرؤية المباشرة فقط، ولكنها في حقيقة الأمر ليست موجودة فحسب، أو مؤكَّدة فحسب، ولكنها أكثر ثقلاً وحضوراً وتأثيراً في الصيغة النهائية للمعمار الكوني، وفي المعطيات التي يتضمَّنها بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وترى المذاهب البشرية، التي بلغت أقصى حدتها وتسطحها في (المادية الديالكتيكية)، ترى في المعمار الكوني طبقةً واحدةً، ليس وراء كتلتها المادية وجرمها الثقيل ذي الذرَّات والجزئيَّات والأحجام والمساحات أي شيء على الإطلاق.

والذي ينتمي لهذا الدين يتحتَّم عليه منذ اللحظة الأولى أن يتجاوز هذه النظرة الأحادية المسطحة، اللاصقة بالمنظور.. يتجاوزها صوب العمق، صوب البعد الآخر للمعمار الكوني، والتيقن الكامل بأن هناك فيما وراء هذه الطبقة المنظورة طبقة أخرى غير منظورة، لكنها أكثر وجوداً وحضوراً وتأثيراً..

٣

إنه الغيب الذي يحيط بالطبقة المرئية، يتخلَّلها، يقف وراءها، يمتد إلى جذورها البعيدة، ويتشوَّف صوب الآفاق التي لا تطولها هذه الطبقة مهما علتْ شرفاتها، وامتدَّت أدوارها في السماء.

هذا الغيب الذي ينعكس حضوره على الوجود الكوني بأشكال وصيغ مختلفة؛ بدءاً من عملية الخلق والتشكُّل التي يحقق فيها الغيب حضوره بصيغة منظور مادِّي، وانتهاء بدمار هذا المنظور وتفتته عند يوم الحساب وبفعل قوة الغيب نفسه، مروراً بكل الصيغ والمعطيات اللامادية التي تملأ ساحة المعمار الكوني، تعجُّ بها ردهاته وممراته وأروقته، بل إنها تتخلَّل جزئياته وذرَّاته.

إن الله الخالق سبحانه، والروح المنبعثة عن نفخة الله جلَّ وعلا، والوحي الذي ينقل تعاليم السماء للأرض، لئلا يضل الإنسان ويضيع، كلها من الغيب، وعلى المسلم أن يسلِّم بها ويطمئنَّ لها عقله وقلبه ووجدانه،

لأن مجرد انتمائه للإسلام يعني قدرته على كسر جدار المرئي القريب، والتشوُّف بعيداً فيما وراءه صوب البعد أو الوجه الآخر للمعمار الكوني.

وإن الملائكة والجن والشياطين هي من الغيب الذي يتحتَّم أن نسلم به، والذي يعكس تأثيراته المرئية وغير المرئية بما يؤكد حضوره وفاعليته..

وإن طاقات الإنسان اللاحسيَّة بما فيها الخيال، والتذكر، وما يسمى بالحواس ما وراء الخامسة، وطرائق عمل العقل.. إلخ، لهي من الغيب الذي يتخلَّل الإنسان نفسه ويمكِّنه؛ في الوقت ذاته، من مدِّ الجسور بينه وبين الطبقة المغيبة من المعمار الكوني.

بل إن حركة الذرات الماديَّة نفسها، ما يجري في مساراتها غير المرئية، في نيوتروناتها وبروتوناتها، ما يتدفَّق في فوتونات الأحزمة الضوئية، ما يخفق في جذب المغناطيس وانبعاثات الكهرباء.. لهي كلّها، بشكل من الأشكال، حالة غيبية لا زالت مستعصية، كالروح نفسها، على التحليل النهائي الذي يخضعها للمختبر، ويجعلها أمراً مرئياً وملموساً.. يتيح للإنسان أن يحيلها إلى المادي المنظور..

٤

إن الانتماء للإسلام يعني التسليم بهذه الحقيقة حتى قبل أن يؤكِّدها العلم، حتى قبل أن تعبِّر عن نفسها عبر معطيات النشاط البشري وأفعاله الحضارية.. يسلم بها لأن الله سبحانه يقول بوجود الطبقتين في معمار الكون، ويخرج به عن خداع الحواس وأسر المحدود، والاعتقاد الضال بأن هذا المعمار لا يعدو أن يكون طبقةً واحدةً.

ومنذ الكلمات الأولى في كتاب الله نلتقي بهذه الحقيقة، هنالك حيث يرتبط الإيمان بالغيب بسائر الممارسات الإسلامية التي يتعشَّق معها، بل

حيث يغدو الأساس الذي تقوم عليه رؤية المسلم ويستند إليه سلوكه اليومي، وتبنى عليه أنشطته ومعطياته.

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

تلك هي العلامة الفارقة، والإشارة الحاسمة، والحد الفاصل بين الإيمان وبين الكفر، بين الإسلام وبين سائر المذاهب والرؤى والتحليلات.

طبقتان في المعمار الكوني، فليس ثمة بعد واحد، مسطح، ممسوخ، كما يريد الوضاعون أن يصوروا، وإنما هو البعد المركب، الغائر، العميق، الذي يعكس الحقيقة النهائية كما خلقها الله، والذي يعبر عن السرِّ الإلٰهي الذي أودعه سبحانه وتعالى في هذا المعمار الهائل.

٥

والقرآن الكريم نفسه في مقابل هذا كله ينعي على الوضعيين رؤيتهم المسطحة هذه وعلمهم التافه الهزيل، ونظرتهم القاصرة إلى الكون؛ فيصمهم بأنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2]، ومن ثم فإنهم لا يرون إلا المرئيات القريبة، فأما ما وراءها، من يتحكَّم بها ويصوغها، فإنهم عاجزون عن رؤيته. ومن أجل التغطية على عجزهم هذا، على قصورهم وانحسارهم، يلجؤون إلى خدعة سهلة، لكنها مكشوفة، فيرفضون الاعتقاد بوجود طبقة أخرى للمعمار الكوني، وعالم آخر غير العالم الذي تلمسه الأيدي وتسمعه الآذان وتراه العيون.. بل إنهم يمضون إلى ما هو أبعد من هذا، ومن أجل

(١) سورة البقرة، الآيات: ١-٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

مزيد من التضليل ومزيد من الاقتناع بصدق موقفهم في الوقت نفسه، فينظرون رؤيتهم هذه، يفلسفونها ويقدمونها في إطار مذهب أو نظرية أو فلسفة، بل إن بعضهم يبلغ به الغرور أن يسعى لربطها بالعلم المختبري، رغم أن هذا العلم هو بحدِّ ذاته أداة غير صالحة للحكم على الغيب، ورغم أنه ـ عبر العقود الأخيرة ـ أخذ ينحني للبعد الغيبيّ، ويقرَّ ثقله وحضوره في صميم النسيج الكوني بصيغة أو بأخرى.

٦

هذه هي الحقيقة التي يتحتم أن تكون واضحة في الأذهان، وفي العقل والوجدان المسلم بشكل خاص، لدى مناقشة بعض الجزئيات التي قد تبدو غامضةً بعض الشيء، غير مقنعةٍ للوهلة الأولى.

في أمسية مع حشدٍ من الأصدقاء تساءل أحدهم عن معنى أن تكون النجوم، هذه الكتل المادية المحكمة الترابط الهائلة.. رجوماً للشياطين!

ما هذا؟ تساؤل بنوع من القناعة المهزوزة التي تتجاوز قلقها صوب الاستنكار.. إننا في عصر العلم، عصر التقدُّم المذهل لعلمَي الفيزياء والفلك على وجه الخصوص، قد لا نسلِّم بما كان يسلِّم به أجدادنا.. أولئك ما كانوا يرون جيداً ما يجري في ساحة الكون.. لم يكن العلم قد قدم لهم ما فيه الكفاية.. أمَّا الآن، فكيف نتقبَّل مسألة أن تكون النجوم رجوماً للشياطين؟

أطرقت سمعي وهو يتحدَّث.. كلمات استغفار تصدر عن بعض الجالسين، ولمحت في الوقت نفسه رؤوساً ترتفع وتنخفض؛ وكأنها تقرُّ التساؤل، تتعاطف معه، أو على الأقل تتمنَّى لو تعثرُ على جوابٍ ترتاح إليه..

قلت له: أتسمح لي؟

قال: بكل تأكيد، فأنَا منذ زمن أسعى لطرح (شكي) في هذه المسألة؛ لكنني كنت أخشى أن أتهم بالمروق، فما هي في الحقيقة إلا الرغبة الجادَّة في مزيد من اليقين.

أجبته: إذن لنرجع إلى نص الآية الكريمة التي صدر عنها تساؤلك ذاك، إنها تقول: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾(١)، فهي إذن تتحدث عن السماء الدنيا فقط، لا عموم السماوات، السماء القريبة المحيطة بكرتنا الأرضية التي لا تعدو أن تكون ذرة لا تكاد ترى في بحر الكون الشاسع البعيد.. وفرق كبير بين أن تكون النجوم في مدى الكون كله رجوماً للشياطين، وبين تلك النجوم المحدودة، الصغيرة نسبياً، القريبة، التي تطلُّ على العالم وتتحرَّك عند فضائه القريب.

٧

ثم إن الآية نفسها تعرض وظيفةً أخرى لهذه النجوم القريبة، بل إنها لتسبق بها وظيفتها التالية، تلك هي الوظيفة الجمالية، وأيضاً بقدر ما يتعلَّق الأمر بكرتنا الصغيرة، بحياتنا البشرية على سطح هذه الكرة، وبارتباطاتها ومطالبها وغاياتها وطبيعة سعي الإنسان فيها.

إنها تؤكد هنا (المسألة الجمالية) وحضورها المؤثّر، إنْ على ساحة الطبيعة والعالم، وإنْ على مستوى التجربة البشريّة وأشواق الإنسان، وإنْ في نسيج التصور الإسلامي للوجود الذي لا يغفل لحظة عن الجانب الآخر للحقائق والمعطيات؛ وهو الجانب الجمالي، جنباً إلى جنب مع الضرورات.

قال: إذن فهنالك أكثر من وظيفة للكواكب والنجوم!!

أجبته: في السماء القريبة فحسب..

---

(١) سورة الملك، الآية: ٥.

قال: ولكن ما حكاية رجم الشياطين بالنجوم، بغضِّ النظر عن قربها أو بعدها، وبغض النظر كذلك عن وظيفتها الأخرى؟

قلت: لقد كنت أحدِّثك حتى الآن في حدود الطبقة المنظورة للكون، لم أتجاوز ذلك إلى الطبقة الأخرى، الطبقة المغيَّبة التي لا تقل ثقلاً وحضوراً عما تراه وتلمسه من مباشر منظور..

إن الجان والشياطين عوالم غيبيَّة تعيش بين ظهرانينا، تتخلل وجودنا الأرضي وتتعشَّق معه، قد لا نراها، ولكننا ـ أحياناً ـ نلمس تأثيراتها، وهذه التأثيرات أخذت تتزايد وتتأكَّد أكثر فأكثر بتزايد الخبرات البشريَّة فيما يعرف بدوائر تحضير الأرواح والممارسات المرتبطة بها.

لا نراها.. لكننا نلمس تأثيراتها، وهذا يكفي ـ علمياً ـ لتجاوز موقع النفي، بل يكفي للوصول إلى حافَّة اليقين، لأنه شبيه، بشكل من الأشكال، بكثير من الظواهر الطبيعية كالضوء والمغناطيس والكهرباء.. إلخ؛ تلك التي لم يقدر العلم أن يبلغ ماهيتها، ولكنَّه تمكَّن من التعامل مع تأثيراتها وخواصها فصنع بذلك الأعاجيب في ميادين النظريات والتطبيقات (التكنولوجية).

٨

كنت أجد صديقي ذاك منصتاً باهتمام، فواصلت حديثي: إن هذه العوالم المغيبة عن الأبصار، تملك قدرة على الحركة السريعة فيما لا يملك الإنسان مقداراً ولو تافهاً منها، لأنها موجودات غير مادية، بينما الإنسان المتعشِّقة روحه بالجسد، يجد من ثقل المادة وشد الأرض وقوانين الجاذبية المادية ما يعرقل حركته ويبطئ بها، وليست الأنشطة الباهرة للعلم الحديث، في جانب ما من جوانبها، إلا محاولة لتمكين الإنسان، بالتقنية المتقدِّمة،

والعلم المتوغِّل في أسرار الكون، من تجاوز البطء والتحقق بحركة أسرع في رحاب الكون القريب.

وإن العلم نفسه ليعلِّمنا كيف أن الضوء الذي تتدفق فوتوناته بعيداً عن أسْر المادة؛ يتحرَّك بسرعةٍ مذهلةٍ، ويتجاوز المسافات الكونية الشاسعة بدقائق زمنية ولحظات، وهو بسبب من حركته الباهرة تلك يتخذ مقياساً للمسافات الشاسعة في المعمار الكوني بين مجموعة ومجموعة، وجرم وجرم.

إن الجان والشياطين، والملائكة بطبيعة الحال، لتشبه، من ناحية من النواحي، هذه الطاقة الضوئية، فتملك قدرتها على الحركة السريعة واجتياز الأماكن بما يشبه المعجزات.

٩

ليس من حق أحد أن يلحَّ في الحديث عن الوجود الغيبي في الكون؛ لأن أدواتنا الحسية لا تعيننا على التحقق بنتائج يقينية مطلقة.. ولذا يكفي أن نسلم بما ورد في كتاب الله عن هذا الوجود، وتطمئنَّ قلوبنا لعلم الله الذي يعلو على علوم المخاليق والعباد، ولكنني مع هذا أحبُّ أن أقرِّب المسألة إليك، فأرجو ألَّا تتصور كلامي هذا بمثابة الحقيقة النهائية عن الموضوع الذي أثَرْته قبل قليل.

قال: أنا لا تهمني هذه المسألة! وكل الذي أرجوه هو أن تواصل تحليلك لعلِّي أصل إلى نوع من القناعة التي أشعر أنَّ غيابها يمضُّني بقلقه..

قلت: هذه العوالم الشيطانية، بما أنها في وضع تحدٍّ مع الله جلَّ جلاله ومع عباده المؤمنين فيما نعرفه جميعاً منذ لحظة خلق آدم، ورفض إبليس السجود له، وإعلان عصيانه، وقسمه على الله أن يمارس «غواية» الإنسان حتى يقوم الحساب.. هذه العوالم تستغلُّ قدرتها على الحركة السريعة،

وعلى اجتياز التحدّيات المكانية لتنفيذ جانب من وظيفتها في الغواية والتضليل، فتحاول بين الحين والحين، أن تسترق السمع إلى الملأ الأعلى للاطلاع على جانب مما يتقرَّر فيه، والعودة ثانية إلى الأرض، لاستغلال هذه المعلومات المسترَقة، في تضليل الإنسان، والعبث بمقدرات الرسالات، والمؤمنين بها..

إن المسألة لشبيهة إلى حدٍّ ما بمحاولة بعض المتنفِّذين ذوي الإمكانات الخاصة، في عدد من الدول والحكومات، استراق معلومات خطيرة من مصادرها العليا للإفادة منها في عمل تخريبي أو تضليلي مضاد لتلك المصادر.

إن الملأ الأعلى، إذا جاز لنا التصوُّر، هو أشبه بدائرة تخصصٍ عليا لصياغة الأوامر وإصدارها، وإن محاولة الشياطين اختراق تلك الدائرة قد تعرِّض الأسرار الكونية للانتشار، ومصائر العالم والناس إلى عبثٍ ليس من السهولة بمكان تصور نتائجه!

ومن أجل ألَّا يتاح لهذه المخلوقات تحقيق هدفها المضادّ ذاك، تجابهها إرادة الله سبحانه بسلاحٍ مضادّ!

١٠

تساءل صاحبي دهشاً: بالنجوم؟

قلت: ولم لا؟ إنه سلاح من جنس هذه المخلوقات المكونة من نار السموم، إن النار لا تُجَابَهُ إلَّا بالنار، ثم إذا رجعنا إلى العلم الحديث كرة أخرى لوجدناه يؤكد هذه المسألة..

قال بتسرُّعٍ: كيف؟

قلت: كثيرة جداً تلك الأجسام السماوية التي نراها عبر الليالي وهي تخرُّ من سماواتها البعيدة وتحترق في الفضاء تاركةً خطّاً طويلاً من النار!

قال: الشهب والنيازك.

قلت: إنها هي، والقرآن الكريم في الآية التي بدأنا بها الحوار لا يسمي الأجسام التي يقذف بها الشياطين نجوماً ولكنه يسميها مصابيح، وفي آيات أخرى يسميها شهباً دون أن يتابع تحديد أحجام هذه الشهب والمصابيح؛ سواءً كانت طنّاً واحداً أو ألوفاً من الأطنان، فكتاب الله ليس كتاب هندسة أو حساب، ولكنه كتاب مبادئ كبرى يتحرَّك على هديها الإنسان.

قال وهو يحاول أن يتشبَّث بيقين أكثر كان يطمح إليه: ولكن علامَ هذه الصيغة المعقدة الطويلة بين الله وبين الشيطان لحماية الإنسان؟ أما كان بمقدور الله أن يحسم المسألة بصيغة أكثر سهولةً ومباشرةً؟.

ـ كيف؟

ـ أن يشلَّ الشياطين عن العمل.. أن يوقفهم عن الحركة.. فلا يقدرون من ثَمَّ على الاختراق والاستراق..

ـ معنى ذلك أن يجرِّدهم من خصائصهم.. من القدرة على تحقيق وظيفتهم في الكون والعالم، ومعنى ذلك أيضاً إيقاف جانب من أهم جوانب الصراع والتحدّي التي تجابه الإنسان، والتي بها يقدر على التحقُّق والحركة والفعل.. ويخرج منتصراً في معركة الوجود..

إن الشيطان إما أن يطلق بكامل طاقاته الفاعلة لكي يجابه الإنسان كما أراد له الله سبحانه أن يفعل لحكمة يعرفها الجميع، وإما ألّا يكون على الإطلاق.

قال وهو يبتسم: حسبك يا هذا، لقد سددت عليَّ ثغرات التساؤل كلها!

قلت: أو لم تكن أنت تتمنَّى ذلك؟

أجاب: بكلِّ تأكيدٍ، إن ما قلته يكفي.. و..

قاطعته: أبداً، إنه لا يكفي بكل تأكيد!

تساءل: كيف؟ إنني اقتنعت..

قلت: ستستفزك «جزئيات» أخرى في كتاب الله.. ستأتي في أمسيات قادمة وأنت تحمل شكوكاً شتَّى قد لا تعرضها للمناقشة والحوار، ولكنها ستنبجس في نفسك وعقلك ينابيع دائمة للقلق واهتزاز اليقين..

١١

قال: لا أفهم ماذا تعني..

أجبته: ستتساءل عن معنى اشتراك الملائكة في معركة بدر، وعن الثمانية الذين يحملون عرش الله يوم القيامة، وعن السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً، لا ستون ولا ثمانون!! وعن الجن الذين استمعوا لرسول الله ﷺ وهو عائد من رحلته إلى الطائف.. وغيرها كثير..

قال: ولكنني..

قاطعته مرة أخرى: إذا لم تكن تعرفها الآن فستعرفها يوم تشمِّر عن ساعد الجد للقيام برحلة طويلة في كتاب الله.

تساءل: ماذا إذن؟

قلت: أن يؤمن الإنسان ابتداءً، وأشدِّد على كلمة «ابتداءً»، بأن المعمار الكوني ليس جرماً مادياً فحسب، ليس طبقةً واحدةً، أو وجهاً مسطحاً منظوراً، لكنه تكوين معقَّد متشابك يتضمَّن الماديّ والغيبيّ..

طبقتان بنيت إحداهما من تراب الأرض وحجارتها وحديدها وخشبها، وأقيمت الأخرى بتكوينات غيبية يصعب على الحواس أن تلمسها أو تسمعها أو تراها.. قد تلمس وترى تأثيراتها، ولكنها لن تقع على ماهيَّتها بحال من الأحوال.

إن الأمر واضحٌ جداً، فإذا كان الإسلام نفسه قائماً على الوحي وهو بُعْد غيبيّ، وإذا كان كتاب الله قادماً بطرائق غيبية، واذا كانت ظاهرة الرسالة أمراً غيبياً، وإذا كان الله جل في علاه مغيباً كنهه عن الأبصار، ثم إذا كان القرآن الكريم نفسه يحدثنا في مئات المواضع عن الغيب والوجود الغيبي كحقائق أكثر يقينيَّة وحضوراً من الموجودات والأشياء المادية المعرضة للقلق والاهتزاز والتفتت، والتي أخذ العلم يكشف عنها الغطاء.. يعرِّيها.. فإذا بها هي الأخرى حركة، وظواهر ذات جذور غيبية لا تخضع للحس القريب.

إذا كان هذا وذاك؛ فنحن إما أن نكون مسلمين (فنسلِّم) بكل ما يقوله كتاب الله، أو لا نكون مسلمين على الإطلاق..

١٢

ولكن هل إنَّ موقف الإنسان، غير المؤمن، واعتقاده بالطبقة المادية الواحدة للمعمار الكوني، ورفض الاعتراف بكل ما له علاقة بالطبقة الأخرى، يعدُّ موقفاً علمياً مسؤولاً؟

كلَّا.. بكلّ تأكيد، ما دام أن العلم نفسه يعلن اليوم، ويلحُّ في الإعلان، على أنه بكسره لجدار الكون المادي أطل على عالم غائر، بعيد، محيط، ليس بمقدور العقل والحواس أن تمسك بتلابيبه.. ذلك هو عالم الغيب.

ليس هذا فحسب، بل إن موقفاً خاطئاً كهذا لا يمنح الإنسان سويته النفسية ولا يتيح له التحقق في العالم كإنسان..

وشتان بين إنسان يعيش حياته ملتصقاً بجدران المادة، منقِّراً بترابها، مشدوداً إلى طينها، وبين إنسان يقف على الأرض.. نعم.. ولكنه يمدُّ نظره إلى الآفاق البعيدة لكي يمنح وجوده معنى، ويمكِّن تكوينه النفسي من التوازن والامتلاء.. من المحدود إلى المطلق.. ومن الحفر الضيقة إلى السماء.. ومن الفناء إلى الخلود..

ذلك معنى أن نسلِّم بحقيقة المعمار الكوني ذي الطبقتين، وإلَّا فإنَّ ألف فلسفة أو مذهب وضعي، أو تنظير، لا يفعل بأكثر من أن يبني بين الإنسان وبين رؤيته العلمية المؤمنة للكون.. سداً من الخرافات والأوهام والأضاليل والأهواء والظنون.. ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1].

وصدق الله العظيم.




(١) سورة النجم، الآية: ٢٨.

خرافة الأسرة
أم خرافة الفكرة؟

١

اللعب على التقاليد البشرية المنبثقة عن الفطرة، والموغلة في شرايين الناس، والمتعشِّقة مع معطياتهم الحضارية، قديم..

مئات من الكهنة والدجَّالين والمرتزقة، والفلاسفة والمفكِّرين مارسوا هذه اللعبة؛ تارة باسم الدين، وتارة باسم حقوق الإنسان، وتارة ثالثة باسم الحقيقة الفلسفية أو الضرورة الفكرية.. وتارة رابعة باسم التطور أو التقدم أو حتميَّات التاريخ، أو ما شئنا من تسميات..

وكانت دوافع اللعب المضاد لحاجات الإنسان الأساسية مختلفة، لكنها لم تكن تخرج عن حدود الرغبة في الكسب على حساب الحقائق والأصول والتقاليد.. كسب المال حيناً، وكسب الأنصار حيناً آخر، والتألُّه في الأرض باسم الادِّعاء والمعرفة المطلقة حيناً ثالثاً.

يستوي في ذلك كاهن يبتزُّ أموال الناس من خلال الأوثان التي يصنعها، أو خطيب مهرج يبتزُّ عواطف الناس من خلال الدعاوى التي يطرحها، أو فيلسوف مفكر يبتزُّ عقول الناس من خلال العقائد والفلسفات التي يكتبها.

٢

إن ماركس وأنجلز يطرحان المنشور الشيوعي المعروف، هذه المقولة بمواجهة واحدة من أشد التقاليد البشرية أصالة، وديمومة، وامتداداً، وأكثرها توغُّلاً في نظمهم ومؤسساتهم الحضارية، وأعمقها ارتباطاً بفطرتهم وتكوينهم، تلك هي الأسرة.

يقول المنشور: «إن الأسرة البورجوازية سوف تختفي بشكل طبيعي باختفاء رأس المال.. أما التهريج البورجوازي عن الأسرة وأهميتها في التربية، وعن أهمية العلاقة بين الولد وأبويه، فهو مما يثير الاشمئزاز. إن تقدم الصناعة الحديثة سوف يقطع كل الصلات العائلية بين أفراد الطبقة العاملة».

ويومها صدَّق كثير من المخدوعين ببريق المنشور ودعاواه الثورية الانقلابية الشاملة هذه الخرافة.. وعرف ماركس وأنجلز كيف يربطان بين حاجة الناس إلى التغيير في مجتمع يفتك فيه الظلم والانحلال، وبين خرافات كهذه تسعى لتدمير قيم ومؤسسات تعلو على الوقائع التاريخية المحددة، والممارسات المحدودة في الزمن والمكان، وتمتد لكي تفرض وجودها في كل تجربة تاريخية، وتكون في كل زمن ومكان؛ لأنها تنبثق عن فطرة الإنسان الأصيلة، وتكوينه الذي يميزه عن سائر الخلائق؛ وهما أمران لازمان للإنسان ما دام يحمل هذه الصفة، ملتصقان بوجوده التصاق القلب بالشغاف.

٣

ويكفي أن ننظر إلى التجارب الشيوعيَّة نفسها، على اختلاف وجهاتها ومساراتها بين معتدلة ومتطرِّفة، أصيلة وتحريفيَّة، كما يحلو لهم أن يتَّهموا بعضهم، يكفي أن ننظر إليها جميعاً لكي نراها بعد محاولات متواصلة

مجهدة لتنفيذ المقولة التي طرحها المنشور الشيوعي، تفشل فشلاً ذريعاً، وتعلن بلسان المقال حيناً، وبلسان الحال في معظم الأحيان، إن تنفيذ هذه المسألة دونها المستحيل، والمستحيل هو تغيير التكوين الآدمي نفسه وإعادة تركيبه وفق صيغ ومعادلات أخرى قد تنتج أيّ شيء إلَّا أن يكون هذا الشيء إنساناً!

٤

«اختفاء الأسرة باختفاء رأس المال».. وهب أنَّ رأس المال قد اختفى في العديد من الدول، أو كاد، لكن الأسرة ازدادت قوةً ورسوخاً، ومضت بتقاليدها الأصيلة لكي تعلو على كل المتغيِّرات؛ فلا تتأثر بفعلٍ أو رد فعل فيما يمكن أن يزيلها من الوجود.

«أهمية الأسرة في التربية، وفي العلاقة بين الولد وأبويه مسألة تثير الاشمئزاز».. هكذا يقول المنشور، ولكن الواقع حتى في الدول الشيوعية التي تبنَّت المنشور، يقول ما يخالف هذا، ويؤكد بشكل متزايد أهمية الأسرة في التربية باعتبارها حجر الزاوية، وأهمية العلاقة بين الولد وأبويه باعتبارها ضرورة للتحقق بالحد الأدنى من السوية النفسية، وأنه ليس ثمة مؤسسة تغني عن الأسرة في إعداد جيلٍ سويّ، متوازن، غير منحرفٍ ولا جانحٍ، قدير على مواصلة أعباء الحياة بالصيغ التي تليق بالإنسان وتمكِّنه من مواصلة نموه الحضاري.

وبمجرد نظرةٍ سريعة على ثقل الأسرة كواقعة اجتماعية، وضرورات العلاقة التربوية بين الولد وأبويه؛ تجعل المرء يشمئزُّ من مقولة الرجلين صاحبي المنشور، ويتشكك في جدِّيتهما وقدرتهما على طرح الحقائق الثابتة التي لا تتعرض للشكِّ والاهتزاز.

٥

وغير الأسرة، كثير من الممارسات الأصيلة المنبثقة عن الإنسان ذاته وليس عن الطبقة التي ينتمي إليها، أو العرق الذي ينحدر منه، أو البيئة التي يدرج فيها. وقد وقع الرجلان في الخطأ، وجرَّا وراءهما طوابير طويلةً من العباد والمعجبين حين تصوَّرا أن هذه الممارسة أو تلك، كالأسرة أو الدين أو غيرهما، إنما هما انعكاس طبقيٌّ، يزولان بزوال الطبقة التي شكلتهما ودفعت بهما إلى الوجود.

ولو أنهما تحرَّرا قليلاً من أسْر المنظور الطبقيّ الضيِّق، ونظرا إلى الإنسان على مدى إنسانيته التي تتجاوز المحدود، لما تورَّطا في مقولة كهذه لا تعدو أن تكون واحدةً من الخرافات التي تمرَّسَ الكهنةُ والدجالون في صياغتها على مدى التاريخ.

إنها خرافة الفكرة الخاطئة، وليست ـ بحال ـ خرافة الأسرة الموغلة في الزمن رغم تبدل الأوضاع وتغيُّر الأحوال.

٦

يقول المفكر والأديب المجريّ المعروف آرثر كوستلر، متحدثاً عن إحدى خبراته أيام انتمائه للحزب الشيوعي الألماني في الثلاثينيات:

«كانت فتاة ضئيلة الجسم، قبيحة الوجه، لم يحدث أن التقيت بها من قبل، إلَّا أنَّ إهمالها المتعمَّد لهندامها، وطريقتَها العنيفة في ولوج الغرفة انتابني على الفور أنها إحدى الشيوعيات. كانت من النوع الذي كثر وجوده في الحزب الشيوعي الألماني في ذلك الحين، الفتاة البورجوازية التي لم تلق النجاح في مجتمعها فتحولت بمشيئتها إلى الطبقة العاملة»[١].

(١) عن كتاب (الصنم الذي هوى) لكوستلر ورفاقه، ترجمة فؤاد حمودة، ص ٤٤.

فها هنا نلتقي بامرأة تتحول «بمشيئتها» من طبقة إلى أخرى، فتتجاوز بسلوكها المنظور الحتميات الطبقيَّة للنظريَّة التي انتمت إليها، تخترق هذه الحتميات، بالإرادة الحرَّة، ويكون الدافع النفسي (وهو هنا يتمثَّل بمحاولة التعويض عن القبح الجسدي) أقوى من الدافع الطبقي الذي تقول به النظرية.

ونحن جميعاً نعرف أنَّ هذه ليست حالةً فريدةً أو استثنائيةً، ولكنَّها تيَّار عريض ضم المئات والألوف من المنتمين للشيوعية، وقد شهده كل واحد منا في بلده يوم أتيح لهؤلاء أن يتحرَّكوا على هواهم، وأن يكسبوا الأتباع والمريدين.

وها هنا أيضاً نلتقي بصيغة من صيغ الالتفاف على الطبيعة الأنثوية للمرأة (متمثلة بالإهمال المتعمَّد، وبالطريقة العنيفة في الحركة، فيما يذكرنا ببطلة رواية الأديب الإنكليزي جورج أرويل: ١٩٨٤؛ حيث تتعرض المرأة لسلسلة من الضغوط والتعليمات المضادة لطبيعتها؛ من أجل مسخ أنوثتها وتحويلها إلى شيء آخر تماماً).. نلتقي بهذه الصيغة كنموذج آخر للممارسات الشيوعية المبكِّرة التي سلمت باستنتاجات ماركس وأنجلز عن المرأة، والعائلة، واعتقدت ـ خطأً ـ أنَّ بمقدور الشيوعية أن تحقِّق المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، وأن تستأصل واحداً من أخطر التقاليد وأطولها عمراً: العائلة، حيث تتحول المرأة إلى زوجة، وأم، وربة بيت..

٧

ترى ـ مرة أخرى ـ هل قدرت التجربة على تحقيق النبوءة التي طرحها البيان الشيوعي في منتصف القرن الماضي؟

إن كوستلر يحدثنا، في مكان آخر من مذكراته عن تجربته الشيوعية، يحدثنا كيف منيت النبوءة بالسقوط، وكيف أن المُنَظِّرين حاولوا تبرير

السقوط بأساليبهم التي تعرف كيف تلعب على حتميات النظرية الماركسية، وهي تتراجع أمام الحتميات الأصيلة في الواقع البشري: تميز المرأة، وظاهرة العائلة كمؤسسة اجتماعية.

«كان الدافع الجنسي ـ يقول كوستلر ـ مقرراً ومعترفاً به، إلا أننا كنا في حيرة بشأنه، كان الاقتصار على زوجة واحدة، بل كان نظام الأسرة كله عندنا أثراً من آثار النظام البورجوازي ينبغي نبذه؛ لأنه لا ينمي إلَّا الفردية والنفاق والاتجاه إلى اعتزال الصراع الطبقي، بينما الزواج البورجوازي لم يكن في نظرنا إلَّا شكلاً من أشكال البغاء يحظى برضاء المجتمع وموافقته. إلَّا أنَّ السفاح والاتصال الجنسي العابر كان يعتبر أيضاً غير مقبول، وكان هذا النوع الأخير قد شاع وانتشر داخل الحزب سواءً في روسية أو خارجها، إلى أن أعلن لينين تصريحه الشهير الذي يهاجم فيه نظرية (كأس الماء)، النظرية التي تزعم أن العملية الجنسية ليست أكثر خطراً وأثراً من عملية إطفاء العطش بكأس من الماء[1]. من هذا نرى أن الفضيلة البورجوازية كانت تعتبر شيئاً سيِّئاً، كما أن السفاح والاتصال الجنسي العابر كان سيئاً كذلك، أما الموقف الصائب الذي ينبغي أن نتخذه نحو هذا الدافع الجنسي فهو الفضيلة العمالية؛ التي تتلخَّص في أن الإنسان ينبغي له أن يتزوج ويخلص لزوجته وينجب أبناء عماليِّين.

فإذا تساءلت أليست هذه هي الفضيلة البورجوازية التي استنكرناها من قبل؟ قيل لك: إن هذا التساؤل يدل على أنك لا زلت تفكر بالطريقة الآلية

(١) كان الدكتور وليم رايخ، وهو رجل ماركسي من أتباع فرويد، ومؤسس معهد (السياسة الجنسية)؛ قد أصدر تحت تأثير مالينوفسكي كتاباً أسماه (وظيفة الشهوة الجنسية)، شرح فيه النظرية التي تزعم أن الفشل الجنسي يسبب تعطيل الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة، وأن هذه الطبقة لن تتمكن من تحقيق إمكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية إلا بإطلاق الحافز الجنسي دون حدود أو قيود.

لا بالطريقة المنطقية الجدلية، إذ ما هو الفرق بين البندقية في يد رجل الشرطة، والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية؟ إن الفرق بين البندقية في يد رجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية أن رجل الشرطة من أعوان الطبقة الحاكمة، وبندقيته أداة للعدوان، بينما هذه البندقية نفسها في يد عضو الطبقة العاملة الثورية أداة لتحرير الجماهير المضطهدة، وهذا القول يصدق عن الفرق بين ما يسمونه (الفضيلة) البورجوازية، وبين الفضيلة العمالية. إن نظام الزواج الذي يعتبر في المجتمع الرأسمالي مظهراً للفساد والتحلل، يتحوَّل (منطقياً) إلى عكس ذلك في المجتمع العمالي السليم، فهل فهمت أيها الرفيق أم تحب أن أعيد جوابي بطريقة (محكمة) أكثر من هذه؟»[١].

٨

ويجد المرء نفسه مضطراً للمقارنة بين النظريات الوضعيَّة التي تقوم على الأهواء والظنون فترتطم بالواقع والتاريخ والإنسان، وبين العقيدة الإسلامية القائمة على العلم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي يعرف كيف يتطابق بإعجاز مع الواقع والتاريخ والإنسان؛ فلا يكون ثمَّة تراجع أو ارتطام.

ذلك بعض ما قالته الماركسية ـ اللينينية عن الأنثى والعائلة وتنظيم الدافع الجنسي، أما ما قاله الإسلام فلا يكاد يجهله أحد..

فمن الذي يرتضي استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ من؟

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٧-٥٨.

سخف الفلسفة الوضعية

١

للوهلة الأولى، ومن خلال الألغاز والمعمَّيات التي تعتمدها الفلسفات الغربية الوضعية[١]، وتحيط نفسها بها.. من خلال حملات الإكبار والتقدير التي انصبَّت على شخصيات الفلاسفة من كل مكان.. من خلال مركَّب نقصنا الحضاري الذي خيل إلينا كما لو كان الفيلسوف الغربي إنساناً غير عادي، إنساناً ذا قامة مرتفعة وفكر خلَّاق يجتاز المغاليق، ورؤية للكون والحياة لا تقبل خطأ على الإطلاق..

٢

للوهلة الأولى تتبدَّى الفلسفات الغربية للمرء بحجم أكبر بكثير من حجمها الحقيقي، وبريق يكاد يسلب العين القدرة على الإبصار.

وكلنا نذكر ما كان يفعله مدرسونا في الإعداديات وهم يحكون لنا عن هذا الفيلسوف الغربي أو ذاك؛ من خلال مادة (التاريخ الأوروبي).. بوجل وانكماش.. بتقدير مبالغ فيه يصل حد التضاؤل والصَّغار، ونذكر كذلك طبقة من الأساتذة الجامعيين أعمق ثقافةً من المدرسين وأكثر تخصُّصاً،

(١) نعتمد هنا المدلول اللغوي لا الاصطلاحي للكلمة؛ والمقصود: الفلسفات التي هي من وضع البشر.

كانت هي الأخرى تحدِّثنا عن الفلسفة الغربية كما لو كانت حقاً مطلقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

ولا زلت أذكر مدرِّس التاريخ في الإعدادية، وهو يخطو بحذر وتريُّث خلال شرحه لفقرات في الكتاب خصِّصت للفيلسوف الألماني (هيغل) ولفلسفته المثاليَّة، وكنا نحن نقول في أنفسنا: إذا كان مدرس المادة غير قدير على اقتحام بحر (هيغل) العميق؛ فأنَّى لنا أن نجتازه بعقلياتنا الساذجة وثقافتنا المتواضعة؟!

ولا زلت أذكر كذلك أستاذ الفلسفة في كلية التربية وهو يحدثنا عن الفلسفة المثالية لهيغل، كيف أنه أراد أن يعطينا جانباً من فلسفته كما لو كانت مسلمات مطلقة، ولكنها مسلَّمات غامضة، معمَّاة، ما كانت تزيد الرجل وفلسفته في نفوسنا إلا إجلالاً وإكباراً!!

٣

وما كان الأمر بهذا الذي تصوَّرناه أو صوِّر لنا، وما هكذا يجب أن يكون.. فإن المثقف المسلم على وجه التحديد، ناهيك عن المتخصِّصين منهم، يتحتَّم أنْ يمتلك ابتداءً.. نعم (ابتداءً).. ما يمكن تسميته بالنظرة الفوقيَّة المستقلة الواثقة؛ التي ينظر بها ويقيس ويزن كل ما يقوله العقل البشري شرقياً كان أم غربياً، ولا يسلِّم بسهولة حتى لو طرحه أعظم الفلاسفة والمفكرين.. كما أنه يتحتَّم ألَّا يشعر إزاءه بأيِّ قدر من النقص أو الإعجاب المفرط الذي قد يجنح به بعيداً عن الموقف العلمي الذي يتطلَّبه منه هذا الدين.

إن المسلم ينظر بنور الله، ويعاين الأشياء بتعاليم الله ورسوله ﷺ، ويزن بموازين الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكيف

تُسوِّغ له نفسه أن ينزل عن موقعه العالي هذا، عن استشرافه من الآفاق المفتوحة، إلى الحفر الضيقة والمسالك المتداخلة والشعاب المسدودة لفكر هذا الرجل أو ذاك، ممَّا قد يتضمَّن الكثير من الخطأ والانحراف والفساد؟!

٤

وثمة بداهة قد نغفل عنها لوضوحها في كثير من الأحيان، فإن الفلسفة الوضعيَّة لو كانت حقاً مطلقاً كما صور لنا وخيّل إلينا، لما نقض بعضها بعضاً، وهاجم بعضها بعضاً، ونفى بعضها بعضاً.. ولما شهدت ساحات الفكر والثقافة عشرات، بل مئات وألوفاً من الفلاسفة؛ كان يحلو لكل واحد منهم أن يطرح ادعاءً تقليدياً أصبح بمثابة القاعدة التي يحذو حذوها الجميع: أن ما تقوله فلسفته هو الحق المطلق، وأن ما وراءها من فلسفات لا يعدو أن يكون خدعةً وضلالاً، أو هو ـ على أحسن الأحوال ـ محاولات تتضمَّن الكثير من الشروخ والأخطاء..

٥

في كتاب الأديب الفرنسي (أندريه موروا) عن حياة الروائي الروسي الشهير (إيفان تورجنيف) نقرأ هذا المقطع: «في غضون السنوات التي أمضاها تورجنيف في ألمانية كان هيغل الفيلسوف الذي يلتفُّ حوله المثقفون الروس؛ لأنه كان يقول بأن كل ما هو حقيقي نابع من العقل، في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يقبلون المجتمع كما وضعه التاريخ. ذلك أن الناس يطلبون دائماً من كل مذهب أن يكون دليلاً عقلياً على مشاعرهم وأعمالهم!!

فالشباب الروسي الذي كان يخضع في سنة ١٨٤٠م للقيصر؛ كان يعرف أنه مستبدّ، ولكنه كان يعبده على الرغم منه، وهذا الشباب كان يتوهَّم بأنه واجد في (فلسفة الحق) لهيغل حججاً وأسانيد لتعليل خضوعه.. كانوا

يقولون له: إن الدولة كيان حيّ، وهي هي كما أوجدها التاريخ، ولا يستطيع فرد أو مجموعة أن يغيِّرها تبعاً لأهوائه. وهكذا لا يوجد مجال للمناقشة في ضرورة الطاعة المطلقة للقيصر؛ فذلك أمرٌ واضحٌ جليّ في حدِّ ذاته».

ويمضي موروا إلى القول بأن: «تلك كانت نظرية هيغل كما رأتها جماعة اليمين. على أن هرزن ـ الذي يمثل جماعة اليسار ـ كان يتبين أنه يمكن أن يستمدَّ من هيغل بالذات الدليل على شرعية كل مقاومة للأوتوقراطية؛ إذ لو صح أنَّ كل ما هو حقيقي نابع من العقل، فالثوري ـ إذ يوجد ـ يعتبر جزءاً من التاريخ (إذا كان العقل يعزِّز النظام الاجتماعي القائم، فإن كل مقاومة له ما دامت موجودة تعدُّ معززة كذلك). وهكذا تشكَّلت من فلسفة هيغل صورة أخرى أخذت بها جماعة اليسار»[1].

٦

وهكذا استعملت فلسفة هيغل لتبرير موقف اليمين الخاضع للقيصر، ولتبرير موقف اليسار الثائر على القيصر..

وهذه الميوعة الفكرية التي نجدها هنا تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال لا تقتصر على فلسفة المثالية التي وصفها ماركس وأنجلز بأنها تمشي على رأسها، فحسب، ولكنها تنسحب على الفلسفة المادية نفسها التي صاغها ماركس وأنجلز. فإنك واجد فيها ما يسوق الشيوعيين لمساندة وضع ما، وواجد فيها ـ كذلك ـ ما يدفعهم إلى الثورة عليه والإطاحة به..

وهم يبرِّرون هذا وذاك بأنه (التكتيك) الذي يخدم الاستراتيجية في نهاية المطاف.

---

(١) مطبوعات كتابي، العدد ٥٥، ص ٢٦-٢٧، من المقدمة.

اقرأ ـ على سبيل المثال ـ ما يقوله الأديب المجري المعروف (آرثر كوستلر)؛ الذي خبر الماركسية بانتمائه إليها السنين الطوال، ثم ما لبث أن ارتدَّ عنها بسبب ما وجده فيها من عيوب وتناقضات.. إنه يقول، فيما نحن بصدده: «كانوا يلجؤون، أحياناً، إلى نبذ الحقائق وإغفالها بحيلة بسيطة؛ تتلخَّص في وضع الكلمة بين قوسين وإعطائها جواً من السخرية والمرارة (ماضي تروتسكي الثوري)، الهذيان (الإنساني) للصحافة (الحرة).. إلى آخره. وكان هذا الأسلوب لشدة إملاله يفعل في النفس فعل التنويم المغناطيسي.

إن ساعة من هذا الهذيان (المنطقي الجدلي) كانت تدع الإنسان لا يدري أفتى هو أم فتاة، وتجعله مستعداً لاعتناق أي منهما بمجرد ظهور الأخرى بين قوسين.

لقد كنا على استعداد لأن نؤمن بأن الاشتراكيِّين هم (أ) أعداؤنا الحقيقيُّون (ب) حلفاؤنا الطبيعيُّون، وأن الدول الاشتراكية والدول الرأسمالية (أ) يمكنها أن تعيش مع بعضها بسلام، (ب) لا يمكنها أن تعيش مع بعضها بسلام، وأن أنجلز عندما قال: إنه لا يمكن قيام الاشتراكية في دولة بمفردها؛ كان يعني عكس ذلك تماماً.

بل لقد تعلَّم الواحد منَّا أن يبرهن بالاستدلال المنطقي على أن كل من يخالفه في الرأي هو عميل للفاشية؛ لأنه (أ) لمخالفته لك في الرأي يساعد على تفتيت وحدة الحزب (ب) بعمله على تفتيت وحدة الحزب يساعد على انتصار الفاشية فهو إذن (جـ) من الناحية الموضوعية عميل للفاشية، ولو كان من الناحية الشخصية قد تعرَّض للتعذيب في معسكرات الاعتقال على أيدي الفاشيِّين.

إن كلمات (عميل) أو (الديمقراطية) أو (الحرية). . . إلخ، كانت تعني عندنا في الحزب شيئاً آخر يختلف تماماً عن معناها في الاستعمال العام، بل

كان معناها عندنا يتغيَّر بعد كل تحول في سياسة الحزب، فكان موقفنا من هذه التغييرات كموقف اللاعبين في لعبة الكروكي (التي يقوم اللاعبون فيها بضرب كرات من خشب بمضارب في أيديهم لكي تمرَّ من أطواق خشبية ثابتة)، بين الملكة وأتباعها؛ حيث كانت الأطواق تنتقل عبر الملعب، والكرات قنافذ حية، مع اختلاف واحد؛ هو أن اللاعب عندنا إذا أخطأ وأضاع دوره وقالت الملكة: (اقطعوا رأسه)؛ كان الأمر ينفَّذ بكلِّ جد»[1].

٧

إن هذا التميع في الموقف إزاء الحقائق، واتخاذ زوايا نظر مختلفة، بل متضادة؛ يذكِّرنا بموقف القادة الماركسيين من مسألة الجنس والزواج، فيما تناولناه بشيءٍ من التفصيل في مكان آخر، فقد اعتبروه في البدء رذيلة بورجوازية، تصديقاً لما قاله ماركس وأنجلز، ثم لما شاع الزنى في الاتحاد السوفييتي عبر سني تأسيسه الأولى، وفاض الكأس، وأعلن لينين تصريحه الشهير الذي هاجم فيه هذا التصوُّر، وحث على العودة إلى الزواج كأفضل صيغة للعلاقات الجنسية، عاد الماركسيون فأكَّدوا ضرورة (الزواج) كمؤسسة محتومة في العلاقات الاجتماعية.

فإذا تساءلت ـ يقول كوستلر ـ: «أليست هذه هي الفضيلة البورجوازية التي استنكرناها من قبل؟»؛ قيل لك: «إن هذا التساؤل أيها الرفيق يدل على أنك لا زلت تفكِّر بالطريقة الآلية لا بالطريقة المنطقية الجدلية، إذ ما هو الفرق بين البندقية في يد رجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية؟ إن الفرق بين البندقية في يد رجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية، هو أن رجل الشرطة من أعوان الطبقة الحاكمة،

(١) الصنم الذي هوى، ترجمة فؤاد حمودة، ص ٥٨ ـ ٥٩ (دمشق ـ ١٩٦٠م).

وبندقيته أداة للعدوان، بينما هذه البندقية نفسها في يد عضو الطبقة العاملة الثورية أداة لتحرير الجماهير المضطهدة. وهذا القول يصدق عن الفرق بين ما يسمونه (الفضيلة) البورجوازية، وبين الفضيلة العمالية. إن نظام الزواج الذي يعتبر في المجتمع الرأسمالي مظهراً من مظاهر الفساد والتحلل؛ يتحوَّل (منطقياً) إلى عكس ذلك في المجتمع العمالي السليم، فهل فهمت أيها الرفيق أم تحب أن أعيد جوابي بطريقة محكمة أكثر من هذه؟»[١].

٨

ويتذكر المرء الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[٢]؛ فكأنها قد تنزَّلت لكي تدمغ هذه الظنون والأهواء البشرية.. فما يلبث إلا أن يزداد اعتداداً بموقفه الإيماني، واعتزازاً بعلمه الإلٰهي وموقعه الفوقي الذي يمنحه ـ بالتصوُّر العقيدي المتكامل ـ السيادة على العالمين!

(١) المرجع السابق، ص ٥٧-٥٨.
(٢) سورة النجم، الآية: ٢٣.

العقدة السوداء

١

تتحكم بالعقل والوجدان الغربيَّيْن عقدة سوداء لا يدري المرء متى تنحلُّ خيوطها المتشابكة، وتزول.

إنها كراهية كلِّ ما يمسُّ الإسلام والمسلمين..

طبعاً هنالك استثناءات عديدة، ولكن الاستثناء ـ كما يقول المثل ـ يؤكد القاعدة ولا ينفيها..

ما الذي حدث لكي يحكم أديب إيطالي متنوِّر كدانتي على محمد عليه الصلاة والسلام، وعلي بن بي طالب (كرم الله وجهه) بأن يكونا في الطابق الأسفل من جحيمه؟

يجيب الأديب المتنوِّر: لأنهما لم يستطيعا أن يكونا قِسَّيْن!

ولا يمكن للمرء الذي يملك شيئاً من القدرة على التفكير أن يصدِّق بأن دانتي كان مقتنعاً بهذا السبب الغريب.

٢

ما الذي حدث لكي يتقدَّم المفكر والأديب الفرنسي المعروف فولتير، الذي عُلِّمْنا في المدارس بأنه أحد أقطاب الفكر الحر المتنور الذي قاد إلى الثورة الفرنسية، يتقدم بأحد كتبه إلى البابا، راكعاً أمامه، مقبِّلاً قدميه

الكريمتين، صاباً على الرسول الشريف ﷺ سيلاً من الشتائم التي يربأ الذوق عن مجرد نقلها والإشارة إليها؟

ومع ذلك نرى أن من الضروري الرجوع إلى (القصة) من بدايتها؛ عَلَّ صورة فولتير داعية الحرية تهتزُّ قليلاً في أذهان المعجبين!

في عام ١٧٤٢م كتب فولتير مسرحية بعنوان (محمد)؛ أعلن فيها: «أن محمداً ولد أميراً، واستدعي لتسنم مقاليد الأمور عن طريق اختيار الناس له. ولو أنه وضع قوانين سليمة ودافع عن بلاده وصد أعداءه لكان من الممكن احترامه وتبجيله، ولكن عندما يقوم راعي إبل بثورة، ويزعم أنه كلَّم جبريل، وأنه تلقَّى هذا الكتاب غير المفهوم الذي تطالع في كل صفحة منه خرقاً للتفكير المتَّزِن، حيث يقتل الرجال وتخطف النساء لحملهن على الإيمان بهذا الكتاب، مثل هذا السلوك لا يمكن أن يدافع عنه الإنسان ما لم تكن الخرافات قد خنقت فيه نور الطبيعة. إن محمداً كان يشن الحرب على البلاد، ويتجرَّأ على ذلك باسم الله، وليس مثل هذا الإنسان قادراً على فعل أي شيء»[(١)].

وفي كتاب آخر له بعنوان (رسالة حول الأخلاق)؛ يؤكد فولتير «أن دين محمد لا يحتوي على شيءٍ جديد سوى عبارة محمد رسول الله»[(١)].

ويذكر توفيق الحكيم في كتابه المعروف (تحت شمس الفكر) أن فولتير عندما ألَّف مسرحيته عن (محمد) ﷺ، وقدمها هدية إلى البابا؛ جاء في هذا الإهداء بالحرف الواحد: «فلتستغفر قداستك لِعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة، إذ تجرَّأ فقدَّم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية. وإلى من - غير وكيل ربِّ السلام والحقيقة - أستطيع أن أتوجه بنقد قسوة نبي كاذب وأغلاطه؟ فلتأذن لي قداستك في أن

---

(١) عن مجلة البلاغ الكويتية، عدد ٥٨، ص ١٢.

أضع عند قدميك الكتاب ومؤلِّفه، وأن أجرأ على سؤالك الحماية والبركة، وأني مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيَّتين.

فولتير: ١٧ آب ١٧٤٥م».

«وعلمت ـ يقول الحكيم ـ أنَّ جان جاك روسو كان يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية، فاطلعت على ما قال في قصة (محمد) علَّني أجد ما يردُّ الحق إلى نصابه؛ فلم أرَ هذا المفكر الحر يدفع عن محمد ما ألصق به كذباً، وكأن الأمر لا يعنيه، وكان ما قيل في هذا النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن»[1].

٣

وجان جاك روسو، هو الآخر بطل من أبطال الحرية والتنوُّر، وواحد من دعاة الثورة ضد التعصُّب والخرافة، هكذا حاول معلِّمونا، في المدارس الابتدائية والإعدادية وحتى في الجامعة.. وهكذا حاولت المناهج التي أفرغت في عقولنا هناك.. أن نتصوره ونتقبَّله كحقيقةٍ نهائيةٍ مسلَّمٍ بها.

٤

ما الذي حدث لكي يندفع سيل من المبشِّرين ورجال اللاهوت والمستشرقين والمفكرين العلمانيين والماديين، فيمضون في الطريق ذاته وهم ينثرون أحقادهم واتهاماتهم وشتائمهم ذات اليمين وذات الشمال؟

وهاكم «بعضهم»..

لورنس براون: «إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، وأمكن أن يصبحوا نعمةً له أيضاً، أما إذا بقوا متفرّقين فإنهم يظلُّون حينئذ بلا قوةٍ ولا تأثيرٍ».

---

(١) الصفحات (١٨-٢٠) من الكتاب المذكور.

القسّ كالهون سيمون: «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلُّص من السيطرة الأوروبية، ولذلك كان التبشير عاملاً مهماً في كسر شوكة هذه الحركات، وذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيِّين في نورٍ جديدٍ جذاب، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها».

و. س. نلسون: «لقد أخضع سيف الإسلام شعوب إفريقية وآسية شعباً بعد شعبٍ».

المسيو كيمون: «إن الواجب تدمير خُمْس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقَّة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر. وهو حلٌّ بسيطٌ، وفيه مصلحة للجنس البشري، أليس كذلك؟».

جابريل هانوتو (معلقاً): «لقد غاب عن خاطر المسيو كيمون أنه يوجد نحو مئة وثلاثين مليوناً من المسلمين، وأن من الجائز أن يهبَّ هؤلاء المجانين للدفاع عن أنفسهم والذود عن حمى دينهم»(١).

أديسن: «محمد لم يستطع فهم النصرانية، ولذلك لم يكن في خياله منها إلا صوراً مشوهةً بنى عليها دينه الذي جاء به للعرب».

هنري جيسب: «المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدِّرونها قدرها.. إنهم لصوصٌ، وقتلةٌ، ومتأخِّرون، وإن التبشير سيعمل على تمدينهم»..

٥

لو أنَّ الأمر اقتصر على رجل الدين الغربي، مبشراً أو لاهوتياً، لتبينت الأسباب، ولو أنه اقتصر على الشخصيات الرسمية في أوروبة وأمريكة لتبينت

---

(١) توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص ٢٣-٢٤.

الأسباب كذلك، ولكنه امتد إلى دوائر المثقفين كافة، فضلاً عن الأميِّين، فإذا بهؤلاء جميعاً يقفون الموقف ذاته: مؤمنهم وملحدهم، علمانيّهم وماديّهم، كاثوليكيّهم وأرثوذوكسيّهم وبروتستانتيّهم.. ويهوديّهم بطبيعة الحال!

فلو أنَّنا عدنا إلى ما كتبه هؤلاء أو قالوه؛ لوجدناه يتأرجح بين حدين لكنه لا يتجاوزهما بحال من الأحوال: حدّ الشتائم المبتذلة، والسباب الرخيص، والاتهامات التي لا تسندها حجةٌ أو برهانٌ. وحدّ الطعن الماكر المتلفّع برداء العلمية والموضوعيَّة والمنهجيَّة.

ولكن الحدَّين يَمتَحان من بؤرة واحدة، ويصبَّان في بحر واحد.

فسواء قرأت لمبشِّر يتحدَّث عن الرسول ﷺ، أو لمستشرقٍ يكتب عن صحابته الكرام، أو أديبٍ يبدع مسرحية أو رواية تمسُّ الإسلام من قريبٍ أو بعيدٍ، أو مفكِّرٍ اقتصاديٍّ يحلِّل جانباً من النظام الاقتصادي للإسلام، أو سياسي يستعرض أوضاع هذه المنطقة أو تلك من عالم الإسلام، أو عسكريٍّ يرسم الخطط والأساليب لمجابهة هذه الثورة أو تلك من ثورات الشعوب الإسلامية.. فإنك واجدٌ النبرة نفسها، تظهر حيناً وتختفي أحياناً، لكن الإيقاع يظلُّ نفس الإيقاع، والدخان الأسود الذي يحجب عن العين الرؤية الموضوعيَّة العادلة يظلُّ نفس الدخان، وإن اختلفت درجات كثافته.

٦

وللوهلة الأولى يبدو أن ثمَّة فارقاً كبيراً بين ما قاله دانتي أو فولتير عن نبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، وما كتبه بعد قرون عديدة مستشرقون كبرنارد لويس، أو جب، أو ـ حتى ـ مونتغمري وات..

ولكن بالتحليل المتأنِّي للمعطيات نستطيع أن نضع أيدينا على الخيوط المتشابهة لدى هذا الرجل أو ذاك على اختلاف الأماكن والأزمان.

وتكون الحقيقة الخالصة هي الضحية، تارة بالاندفاع الأهوج وتارة أخرى بالمناهج الماكرة الخبيثة..

ويكون المسلم الذي لا يتحصَّن ضد هذا الوباء المتأصِّل، بما فيه الكفاية، ضحية أخرى كذلك..

وما أكثر الضحايا الذين شهدتهم هذه المعركة الشرسة التي ظلَّ العقل الغربي يشنُّها علينا ولا يزال..

بل إن بعض أبنائنا وإخواننا أنفسهم يعودون من هناك وهم يحملون الجراثيم ذاتها، فيتولَّون بأنفسهم كِبْر المهمة التي زرعها في عقولهم ـ بدهاء ـ أساتذتهم هناك..

٧

ومن عجب أنه حتى المفكرين المادِّيين الذين قطعوا علاقاتهم الفكريَّة والعاطفيَّة بكل ما يمتُّ للدين والإيمان بصلة، هؤلاء أيضاً يحملون الكراهية التاريخيَّة للإسلام والمسلمين.. وهم يؤكِّدون هذا في كتاباتهم حيناً، وفي ممارساتهم العملية وسياساتهم تجاه أبناء المنطقة الإسلامية حيناً آخر.

وبنظرةٍ سريعةٍ إلى معطيات الفكر الماركسي، والمادي عموماً، إزاء الإسلام، وبنظرة سريعة أخرى تجاه ممارسات القيادات الماركسية تجاه عالم الإسلام، يتبيَّن المرء أن دوافع الحقد والكراهية، ها هنا، لا تقلُّ عنفاً وضراوة عنها هناك، إن لم تفُقْها وتزيد عليها.

ويكفي أن نطالع النصَّ التالي المعروف الذي كتَبه الماركسيون الروس عن ظهور الإسلام؛ لكي نعرف الظلمات التي يتخبطون فيها، والدخان الأسود الذي يحجب الرؤية العلميَّة النقيَّة للظواهر والأشياء.. «فبعضهم يرى أن المجتمع العربي (في مكة والمدينة) شهد بداية تكوين مجتمع يمتلك الرقيق، بينما يرى بيجو لفسكايا أن القرآن الكريم يشعر بتركُّز مرحلة ملكية الرقيق،

ويذهب مع بلاييف إلى أن المرحلة الإقطاعية هي من آثار اتصال العرب بالشعوب الأخرى. هذا ويرى آخرون أن المجتمع الإقطاعي بدأ بالتكوُّن فعلاً.. ومنهم من يرى أن الإسلام يلائم مصالح الطبقات المستغلَّة الجديدة من ملَّاك وأرستقراطية الإقطاع مثل كليموفيج، ومنهم من يراه في مصلحة أرستقراطية الرقيق، في حين أن بعضهم، مثل بلاييف، يرى أن الإسلام المتمثِّل بالقرآن الكريم لا يلائم المصالح السياسيَّة والاجتماعيَّة للطبقات الحاكمة، فلجأ أصحابه إلى الوضع في الحديث لتبرير الاستغلال الطبقي الجديد. وفي حين أن بعضهم يقول: إن الأرستقراطية وحَّدت القبائل العربية لتحقيق أغراضها، يقول غيرهم: إن القبائل كانت تتوثَّب للوحدة، فجاء الإسلام موحداً يعبر عن ذلك التوثُّب. ويضطرب الموقف من نشأة الإسلام ذاته، فبينما يدعي كليموفيج أن محمداً ﷺ واحد من عدة أنبياء ظهروا وبشَّروا بالتوحيد، وأرادوا توحيد القبائل، يذهب تولستوف إلى نفي وجود النبي العربي، ويعتبره شخصية أسطوريَّة، وبينما يعترف البعض بظهور الإسلام، يذهب كليموفيج إلى أن جزءاً كبيراً منه ظهر فيما بعد، في مصلحة الإقطاعيين، ونسب أصله إلى فعاليَّات معجزة لمحمد. وتجاوز تولستوف إلى أن الإسلام نشأ من أسطورة صنعت في فترة الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة، وهي أسطورة مستمدَّة من اعتقادات سابقة تسمى الحنيفية»[1]!!

٨

ما الذي حدث لكي يتلقَّى الإسلام نبياً، وعقيدةً وتشريعاً، وتاريخاً وحضارةً، وشعوباً ودولاً، كل هذه الرشقات من الدخان؟! ألم يَأْنِ الأوان في عصر التفوُّق العلميّ والاتصال المدهش بين الأمم والثقافات لكي يراجع العقل الغربي حسابه، ويتَّخذ موقفاً أقرب إلى روح هذا العصر وأكثر انسجاماً مع معطياته؟!

(١) د. عبد العزيز الدوري ورفاقه: تفسير التاريخ، ص ١٥-١٦ (مكتبة النهضة، بغداد).

غياب البديل

١

قد يكسب مذهبٌ ما قوَّته وقدرته على الانتشار والكسب، لا من مزايا خاصَّة يتَّصف بها، ولا من معطيات مكتملة تمتلك القدرة على الإقناع باعتبارها حقائق مطلقة.. ولكن من تفرُّده في الساحة، وانعدام البديل أو غيابه، وربما من كون هذا البديل يتميَّز بقدر كبير من الضعف والتهافت والارتطام بقناعات الإنسان في مرحلة ما من مراحل التاريخ.

هذا هو واحد من الأسباب التي مكَّنت للماركسية في أوروبة، وجعلتها، فترة من الزمن، امتدت بخاصة فيما بين عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن، بمثابة العقيدة المتفرِّدة في الساحة الأوروبية، ونقطة الجذب ذات البريق المثير، والكعبة التي كان معظم المثقفين: مفكرين وفنانين وأدباء، يجدون أنفسهم مَسُوقين للحج إليها!

٢

لم يكن هناك بديل يوازيها في القوة، والجذب، والقدرة على الإقناع، كان يسود أوروبة ـ ولا يزال ـ فراغٌ مخيفٌ، دفع بحشود من الباحثين إلى ما يمكن تسميته بمحاولة الامتلاء أو التوازن النفسي من خلال الانتماء.. يهرعون لربط مصائرهم بالماركسية نظريةً وتطبيقاً..

المسيحية؟! أبداً ما كانت بقادرةٍ على أن تملأ ولو جانباً ضيّقاً من الحيِّز الكبير الذي غطى على أوروبة من أقصاها إلى أقصاها . .

الديمقراطية؟! كانت هذه رداءً فضفاضاً يتّسع لكلِّ شيءٍ، ولكنها لا تملك أيَّ تميُّز، وما كانت خطوطها المتميعة الباهتة لترسم للعقل البشري معماراً صارماً ذا أبعادٍ مرئيةٍ، بعشر معشار ما تفعله الماركسية.

الاشتراكيات الوطنية؟! نعم لقد كانت تملك قدرتها على الجذب من خلال نزعتها القومية الأصيلة المتطرِّفة ذات البريق، لكنها كانت قد حكمت على نفسها بالاعتقال في الحيِّز المكاني والبشري الضيِّق بسبب من عرقيَّتها وعدوانيَّتها . .

المذاهب والفلسفات الأخرى؟! ما كانت تعدو أن تكون ترفاً فكرياً لا يمس أشواق الإنسان ولا يلبِّي حاجاته التاريخية . .

الماركسية وحدها في الميدان، وليس ثمَّة سوى بدائل ما كانت بقامتها ولا قدرت على أن تسامتَها في القدرة على الجذب والتأثير . .

فها هنا العالمية، والإنسان، والمظلومون، وقوانين التاريخ التقدّمية كما كانت تُدعى . . وهناك العرقية والاستغلال والبورجوازية والرجعية . . إلى آخره مما كانت تتَّهم به بإلحاحٍ عجيبٍ من المراكز الماركسية نفسها . .

٣

هكذا كان المثقَّف الأوروبي يجد نفسه منجذباً، بهذا الدافع أو ذاك للانتماء إلى هذه العقيدة ذات السحر العجيب . .

بل لقد حدث يومها ـ في العشرينيات والثلاثينيات ـ ما هو أكثر من هذا: اتهام المثقف الغربيّ الذي لا يهرع للانتماء إلى الماركسية، بالتخلُّف

والرجعيَّة والجمود.. بتحوُّله إلى أداة تستخدمها الطبقات المستغلة ضد الكادحين والإنسان وقوانين التاريخ..

كان مجرد هذه التهمة التي يتصادى معها إحساس معذب لدى أولئك الذين لا يقدرون على تحمل عبئها المبهظ، يسوق هؤلاء إلى ما يعتبرونه توحُّداً وخلاصاً.. دفاعاً عن الاسم والكرامة.. اختيار الموقع الأكثر علميَّة وأخلاقيَّة، وانسجاماً مع مواقعهم المتقدِّمة كأدباء وفنانين ومفكِّرين..

حتى إذا ما بلغ أحدهم أعماق التجربة، وخبر بنفسه تناقضاتها ومظالمها وكذب ادعاءاتها وأخطائها العلمية والأخلاقية.. رآها وسمعها ولمسها.. وأدرك في نهاية الأمر أنها لا تنسجم بحال من الأحوال مع وضعه كمفكر أو أديب، أو قناعته كإنسان حساس، مثقَّف، مسؤول..

لم يجد الطريق مفتوحاً بسهولة للتراجع عن انتمائه، لم يجده مفتوحاً إن على مستوى الفكر أو الإحساس، أو على مستوى الواقع والممارسة..

يرجع إلى أين؟ وليس ثمة بديل على الإطلاق يمنحه التوازن والامتلاء اللذين تحقق بهما هناك؟

إن الإحساس الذي كان ينتابه في لحظة التفكير بالخروج شبيه إلى حدٍّ ما بذلك الذي يأخذ بخناق من يهوي من الوجود إلى العدم.. من ينفى من العالم إلى الفراغ والضياع.. من يطرد من الفردوس المشتهى..

٤

وآرثر كوستلر، أحد الذين ذاقوا التجربة وذاقوا معها مرارات الأخطاء والمظالم والتناقضات، يحدثنا عن هذا الإحساس فيقول: «.. لم يعد من الممكن لشيء أن يقلق أمننا وسلامنا الداخلي؛ إلا الخوف من أن نفقد هذه

العقيدة فنفقد معها كل ما يجعل للحياة قيمة، ونعود إلى الظلام الدامس من جديد حيث لا نرى إلا العويل والزئير. ولعل في هذا تفسيراً لموقف الشيوعيين الذين لا يزالون يجدون الإيمان في قلوبهم رغم أن لهم عيوناً ترى وعقولاً تفكِّر». ويقول في مكان آخر من مذكراته «إن عليك أن تقوم بدورك في اللعب، تؤكد وتنكر، وتفضح وتتراجع، وتأكل ما تقول وتلعق ما تقيء، كان هذا الثمن الذي يلزم أن تدفعه كي يسمح لك بأن تشعر أنك لا زلت ذا فائدة، وبهذا تبقي على احترامك لنفسك عن هذا الطريق المنكوس»[١].

وهو يسمي نقاط الجذب الخادعة في العقيدة الماركسيّة بالخمور الفكريّة، ويعتبر الوقوع في إسارها مرضاً وإدماناً، وجبناً عقلياً: «لقد كان تمسُّكي بآخر خيط من هذا الوهم البالي ـ يقول الرجل ـ نموذجاً للجبن العقليّ الذي لا يزال مسيطراً على اليساريين. إن الإدمان والانعكاف على الأسطورة السوفييتية مرض متشبث وعصي على العلاج كأي إدمان آخر، ولا يكاد الإنسان يهبط من الفردوس حتى يعاوده الإغراء بأن يتذوق منها ولو نقطةً واحدةً، ولو كانت مغشوشة بالماء وتباع تحت اسم آخر. ولن يعدم الإنسان أن يجد في سوق (الشيوعية الدولية) السوداء عدداً من الأسماء والعناوين الجديدة للمبادئ القديمة. إن هذه الشيوعية تتاجر في العناوين والشعارات كما يتاجر مروِّجو الخمور الممنوعة في أنواعها الزائفة المقلَّدة، وكلما كان العميل أقرب إلى السذاجة، سهل عليه أن يصبح ضحيةً لأنواع الخمور الفكرية التي تباع تحت عناوين (السلام) و(الديمقراطية) و(التقدم) وما شئت من هذه التسميات»[٢].

(١) الصنم الذي هوى، ترجمة فؤاد حمودة، (دمشق ـ ١٩٦٠م)، الصفحات: ٢٩، ٨٠-٨١، ٩١.
(٢) المرجع والصفحات السابقة نفسها.

٥

ويستنتج كوستلر: «بأن الأقلّية الضئيلة فقط في كل عصر وفي كل عقيدة هي التي تستطيع أن تعرِّض نفسها للطرد والحرمان، وتقضي على عواطفها في سبيل الحقيقة المجردة»[1].

وقد كان كوستلر نفسه واحداً من هذه الأقلّية، أما الأكثريَّة الساحقة فقد استمرَّت تمارس جبنها العقليَّ وإدمانها.

ذلك أنه ليس ثمَّةَ بديل قد يمنح الخارجين القناعات الكافية لتبرير وجود أي منهم كمثقف وكإنسان..

ومع ذلك فإن محاولات الخروج قد ازدادت طرداً مع الأيام؛ ليس بسببٍ من توافر البديل، ولكن لتزايد التناقضات التي شهدتها التجربة، والتي لم تعد تغري بالبقاء، حتى بالنسبة لأولئك الجبناء، أو المدمنين!

ثمَّة حالات قليلة واستثنائية كان المثقف الغربيّ يحظى فيها بالبديل المرتجى الذي يمنحه القناعة والمبرر والتوازن بأكثر ممَّا فعلته الماركسية.

بعض هؤلاء التقوا به عبر سني البحث فعانقوه قبل أن يقعوا في مصيدة الإغواء الماركسي، وبعضهم تمرَّد على الإغواء وهرعوا لكي يجدوا مصيرهم هناك.

إن ليوبولد فايس يقدِّم لنا نموذجاً للحالة الأولى، وروجيه غارودي للحالة الثانية. وكلاهما يملك عقلاً كبيراً ويمثِل، باتساع ثقافته وتنوُّع خبرته، حصيلة الثقافة الغربية العميقة وغنى خبراتها.. ومعنى ذلك أن هذه الثقافة لم تجد في مكوناتها الخاصة بها، على ازدحامها وكثافتها، ما يمنح بعض العقول الكبيرة القناعة والتوازن واليقين.. بالعكس، فإن هذا الغنى

(١) المرجع والصفحات السابقة نفسها.

الثقافي ليكشف أكثر فأكثر ضرورة أن تكون هناك قاعدة أساسية تنبثق عنها هذه الثقافة.. عقيدة شاملة بعبارة أخرى.. فالثقافة وحدها لا تكفي، وهي تميل إذا لم تستند إلى أرضيةٍ عقيديَّةٍ أو رؤيةٍ شموليَّةٍ مقنعةٍ، لأن تتبعثر وتتشتت، وتجرّ معها الإنسانَ إلى التبعثر والتشتُّت.

٦

ومن خلال هذه المعاناة برزت على الساحة الغربية ظاهرة (اللاانتماء) التي حدثنا عنها الناقد البريطاني كولن ولسون في كتابيه المعروفين (اللامنتمي) و(سقوط الحضارة) فأطال الحديث. إن كبار المفكرين والفنانين والأدباء والفلاسفة، هناك لم يقدروا على التحقُّق الذاتي في إطار ثقافتهم تلك، بل لم يجدوا أَوَّليَّات التوازن واليقين في خضمّ هذه الثقافة المتلاطم، الكالح، العميق.

وكانت مأساتهم تكمن في أنهم كانوا يعون هذا الانفصال المحزن بين الإنسان، فرداً ومجتمعاً، وبين ثقافته.. وإذ اندفعت قيادات هذه الثقافة وقواعدها نحو نوعٍ من الاندماج أو النسيان ـ ربما ـ بسبب من تضاؤل وعيها بانعدام التوازن أو التلاؤم بين الإنسان الغربي وبين أرضيته الثقافيَّة، نجد بالمقابل ذلك التيَّار المضادّ.. حَشْد من المثقفين الكبار يتمرَّدون على ثقافة بلغت بهم شوطاً من الطريق، وهم يريدون أن يواصلوا الرحلة صوب المصير، فلا تقدر معطياتهم الثقافية على إعطائهم المزيد.. لقد امتلكوا العالم كما يقول كولن ولسون.. ثم ماذا بعد؟

٧

إن الإنسان بطبيعة تركيبه ذي النزوع إلى الماورائيات يريد أن يتجاوز العالم إلى الكون.. جدران المادِّية إلى الروح.. الطبيعة إلى ما ورائها..

السلطة إلى الحرية.. إنه يريد أن يكسر الأسوار وينطلق بحثاً عن الإلٰه المفقود!

بعبارة أخرى: إنهم يريدون العقيدة التي تلبِّي نزوعهم الكبير، وإن المرء ليلمس بوضوح هذا التوجه صوب العقيدة؛ ليس فقط في كتب (ولسون)، ولكن في معظم المؤلفات التي أبحر أصحابها في الطريق ذاته، وحاولوا أن يعالجوا أزمة الوجود الثقافي الغربي على ضوء المصير المقفل، والدرب المسدود!

٨

ومرة أخرى فإننا على ضوء هذه الأزمة التي تعانيها الثقافة الغربية؛ نستطيع أن ندرك لماذا توجَّه حشد من المثقفين عبر الربع الثاني من هذا القرن صوب الماركسية، إنه لم يكن توجُّهاً حراً بمعنى الكلمة، ولكنه ارتماء المرهقين الباحثين عن الخلاص بأيَّة طريقة، ومن خلال أيٍّ برنامج يمتلك رؤية عقيدية شاملة، حتى ولو كان الذي يصوغها هو الشيطان.

لكن المشكلة التي سرعان ما تبدَّت لهؤلاء الذين ارتموا في أحضان الماركسية: أنها هي الأخرى تمتح من البئر نفسه؛ الذي يشكل ماؤه نسيج الثقافة الغربيَّة، وينفخ في عروقها.

الفلسفة المادية التي ترفض الغيب والروح، وتتنكَّر للسماء، وتقطع الطريق إلى الجنة، وتحارب وجود الله..

إنها هي الأخرى تحجِّم الإنسان، وتحصره في النطاق الضيِّق، وتغلق الأبواب عليه لكي لا ينطلق صوب الآفاق الرحبة التي تتجاوز حدود المنظور والملموس، وتتأبّى على نداءات الجنس وصرخات الأمعاء..

وإذا كان ثمَّة فرق؛ فإنه في امتلاكها الرؤية الشمولية، العقيدة أو الفلسفة التي استهوت أولئك المثقَّفين، لكن الجوهر هو الجوهر، والنسيج هو النسيج..

٩

فما ثمة من الارتداد كرة أخرى، بحثاً عن حلٍّ أكثر قبولاً، وأقدر على تلبية طموح الإنسان بما أنه إنسان لا حيوان اجتماعي، ولا مجرد أداة ميكانيكية أو رقم مضاف إلى الشمال أو اليمين.

حلٌّ يمكِّن المثقَّف الغربيَّ من التحقُّق الذاتي المفقود، وإذا كانت الأكثرية القلقة لم تقدر لأسباب شتى، ليس هذا مجال تحليلها أو حتى الإشارة إليها، على أن تجد طريقها صوب الهدف، فإن في إسلام ليوبولد فايس وغارودي إشارة مؤكدة على أن هناك من يقدر على الوصول، وعلى أن رحلة البحث عن المصير المتفرِّد الموازي لحجم الإنسان، ستؤتي ثمارها بإذن الله..

ومعنى ذلك: أن المستقبل كفيل بتقديم المزيد من هذه الحالات، ومعنى ذلك أيضاً: أن الدين الإسلامي المتفرِّد قد يفرض وجوده في الساحة الأوروبية في يوم ما، فلا تستأثر المادِّية بالساحة، ولا تسوق خمورُها الفكريةُ العقلَ الغربيَّ إلى الجبن والإدمان!




رأيت الإسلام ولم أرَ مسلمين

١

في حوار مع صديق عائد من الغرب طرح هذا السؤال الذي كاد أن يصبح تقليدياً: ما الذي يجعلهم يتفوّقون علينا؟

إن تقدُّمهم العلميَّ والتقنيَّ لا يكفي وحده للإجابة على السؤال، فالذي يذهب إلى هناك لا يتعامل فقط مع العلم والتقنية، ولكنه يتعامل مع حشد كبير معقَّد متشابك من الممارسات والمعطيات، فتناله الدهشة والإعجاب ليس لعلمهم وتقنيتهم المتقدِّمة فحسب، لأن هذا وذاك يجده منقولاً في بلاده، معمولاً به هناك، أو أن يشهده ـ على الأقل ـ على الشاشات الصغيرة والكبيرة، وعبر صفحات المجلات والجرائد وفصول الكتب، ويسمع به ويتدارسه في أروقة الجامعات والمعاهد والأكاديميات.

الدهشة والإعجاب ينصبَّان على مساحة أوسع بكثير من العلم والتقنية.. على عموم تلك الممارسات والمعطيات التي تمتد وتنتشر في البيت والمدرسة والشارع والمؤسسة، وأماكن الترفيه.. إلخ.

٢

استطاع الحوار أن يقودنا إلى تركيز المسألة بكلمتين؛ هما: أخلاقية التحضُّر. ذلك ما يتميز به الغرب وينال بواسطته الدهشة والإعجاب.

فالحضارة شيءٌ وأخلاقية التحضُّر شيءٌ آخر..

قد نتسلَّم معطيات حضارة بكاملها من أجيال سابقة كافحت لكي تصنعها وتنمِّيها، ولكننا لا نحسن التصرُّف بها فنسوقها إلى الانكماش والتدهور والسقوط..

ذلك عندما نفتقد الشروط الأخلاقية للتعامل الحضاري..

إن الذي يلحظه الذاهب إلى هناك حشداً من الممارسات الجزئية، ولكنها تشكِّل بمجموعها، بل إن كلاً منها ليشكل دلالةً أخلاقية باتجاه التحضُّر.

مثلاً: شوهد سائح ألماني يستقل زورقاً بخارياً في إحدى البحيرات السويسرية، اشتهى أن يأكل برتقالة، واحتفظ بالقشور دون أن يرميها في مياه البحيرة الواسعة، وعندما عاد الزورق لكي يستقر على الحافة؛ هرع الرجل إلى أقرب سلَّة للأوساخ فوضع القشور هناك.

أكثر من هذا، إن السائح الأوروبي الذي يجتاز البحر المتوسط ـ على سبيل المثال ـ لا يجد من الذوق أن يرمي بالأوساخ في عرض البحر، حتى لو كانت عقب سيكارة، بل إنه يحتفظ بها بعناية لكي يرميها في سلال الأوساخ المعلَّقة في أركان السفينة.

وشاهدت بعيني في أحد شوارع مدينةٍ عربيةٍ، صاحب سيارةٍ أنيقةٍ يسحب جيب الأوساخ من جوار المقود، ويقلبه وسط شارع مزدحم، ثم يمضي بسيارته الأنيقة وبذلته ـ المستوردة ـ الأكثر أناقة، كأنه لم يفعل شيئاً يخدش الذوق والحياء..

٣

وحكى أحد الدارسين هناك؛ قال: اضطررت لإيقاف سيارتي في مكان مخصَّص لوقوف السيارات. أنجزت عملي وعدت بعد أكثر من ساعة

لأمتطي سيارتي، وأنطلق لإنجاز أعمال أخرى، فإذا بي أفاجأ بورقة ملصقة بالزجاج الأماميّ. . انزعجت قليلاً، وتوقَّعت أن أكون قد مارست مخالفةً ما في إيقاف السيارة بهذا المكان، ولكني عندما بدأت أقرأ الورقة تبيَّن لي أنها شيءٌ آخر تماماً، اعتذار رقيق اللهجة، يقول بالحرف الواحد: «آسف لأنَّني ارتكبت خطأً بحقِّك، لقد كنت مسرعاً أكثر مما يجب وأنا أستدير لأوقف سيَّارتي إلى جوار سيارتك؛ فتسببت في إلحاق الأذى بدعامتها الخلفية، انتظرتك أكثر من نصف الساعة؛ فلمَّا لم ترجع وكنت مرتبطاً بعمل يتحتم إنجازه؛ تركتُ لك هذه الرسالة. وإنني بانتظارك مساء اليوم على العنوان الذي تجده في نهاية رسالتي هذه. أتمنَّى أن تلبِّي طلبي لأتعرف عليك ولأقدِّم لك اعتذاري مرَّة أخرى. وإذا اقتضى الأمر تفرَّغت يوم غدٍ لإصلاح ما أفسدته بتسرُّعي. . محبَّتي وتمنِّياتي. . .».

ونحن الذين كتب عليهم أن يتحمَّلوا عبء السيارة في البلدان النامية عليهم أن يتحمَّلوا وحدهم مهمة حماية سياراتهم من العدوان. . الذي يملك لساناً أطول ويداً أقدر على الضرب، ورجلاً أشدّ دربة على الركل، هو الذي يخرج من معركة التصادم بين السيارات منتصراً، سواءً كان الضارب أم المضروب.

وماذا أحكي ـ قال محدِّثي ـ عن دقتهم في ضبط المواعيد، وصدقهم في المعاملات؟! عشرات بل مئات من الوقائع يلمسها الشرقي بيديه ويراها بعينيه عبر شهر أو شهرين يقضيهما هناك، فما كذب غربي يوماً في معاملة، ولا أخلف موعداً.

وعندنا، تنتظر الرجل الذي تواعدت معه في الساعة الخامسة؛ فلا يأتيك إلا في السادسة، وتبتاع ثلاثة كيلوات من الفاكهة فتضطر إلى رمي نصفها في صندوق الأوساخ، لا تجد سالماً من العطب إلا تلك التي كانت معروضة

على السطح. وتتعامل مع الجهاز المصنَّع محلياً، فإذا بالفنيِّين والعمال قد نسوا برغياً هنا ولم يشدُّوه بشكل كامل هناك، وإذا بهم قد جعلوا قاعدته اليمنى أطول قليلاً من اليسرى، لم يكلِّفوا أنفسهم عناء ضبط القياس وجعل القاعدتين متساويتي الارتفاع.. وقد تجرحك بعض الأجهزة لأن صانعيها لم يأبهوا لضرورة صقل حافَّاتها! وعلامَ، ما دامت تؤدي غرضها؟!

طيب! قال محدثي بعصبية وهو يضحك رغماً عنه: فلماذا لا يكلفون أنفسهم ـ على الأقل ـ بوضع تحذير مكتوب على جانب من الجهاز يقول:

إنه يجرح فتعامل معه برفق!!

٤

كثيرة هي ويلات عالم كان قد انتمى للإسلام يوماً، وتحقق بالأخلاقية التي رفعته إلى القمة، ومكَّنته من أن يكون متحضِّراً، ومنحته السيادة على العالمين.

ولن يكون ألف مليون مسلم بقادرين اليوم على استعادة دورهم ذاك ما لم يسترجعوا أخلاقياتهم الضائعة التي منحهم إياها الإسلام.

قلت لصديقي: أتدري؟ إن الماساة قد تكمن بكلمة أو كلمتين «الإتقان والإحسان»..

قال وهو لا يزال يلعق آلامه: لا أفهم شيئاً!

أجبته: إنها واحدة من أشد الممارسات الإسلامية أصالةً وإلزاماً، ألم تسمع حديث الرسول ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»**.. فلو أنَّ فنِّيينا وعمَّالنا التزموا هذا؛ لما قدموا لك جهازاً يجرح ولا يقدر على الوقوف مستوياً على سوقه..

وكما أن المرء ـ كما تقول ـ يقدر على معاينة ألف من الشواهد على أخلاقية الغربيِّين في مدى شهر أو أسبوع واحد، فإنه يستطيع بسهولة، عبر ساعة واحدة يتفرغ فيها لقراءة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو جانب منهما على الأقل، أن يحظى بمئات الشواهد على أن الحياة الإسلامية لن تتحقق ما لم تستكمل شروطها الأخلاقية التي يتشبث بها الغربي، يعض عليها بالنواجذ، بينما الشرقي المسلم يكاد ينساها، حتى كأنه لا يعرف ما تعنيه على وجه التحديد.

٥

قال، وملامح المرارة لا تزال تكسو وجهه: إنا معك في هذا، إنهم هناك يضعون رزم الصحف والمجلات والكتب في الأكشاك المخصَّصة لها، ويجيء هذا الرجل أو ذاك فيأخذ مجلة أو جريدة ويضع ثمنها في مكانه المحدد ثم يمضي إلى هدفه.. وفي بلداننا لا يأمن أحد أن يبقي على منضدته حفنة من الدراهم لأنه سيعود فلا يجدها، رغم أن سلوكاً كهذا يمثِّل تناقضاً صريحاً مع جوهر الإسلام، مع واحدة من أشدِّ قيَمِه وضوحاً وإلزاماً.

صمت قليلاً ريثما يسترجع بعض ذكرياته عن الغرب، أو يهرب إليها بعبارة أدق، ثم واصل حديثه قائلاً: دخلت إحدى المكتبات العامة الكبيرة بحثاً عن بعض المصادر والمراجع، فلقيت من الترحيب والعناية ما يفوق الخيال، واكتفيت بتقديم عناوين الكتب التي أبتغيها.

فخلال دقائق معدودات كانت أمامي.. إنهم يعتمدون أحدث الطرائق التقنية في الخدمات المكتبيَّة من أجل التسريع في توصيل المعلومات ونشر المعرفة وخدمة المثقَّفين.

٦

قلت له: على رسلك يا هذا، فإن ثمَّة سؤالاً أودّ أن أطرحه عليك؛ فهل إن تقييمك لخدماتهم المكتبيَّة سببه التقنية المتقدِّمة وحدها؟

أجاب: كلَّا، بكلِّ تأكيد، وإنما هي أخلاقية التعامل مع الجهاز التقني.

قلت: هذا ما أردت أن أصل إليه، وما بدأت به حديثي.. تصوَّر لو أن هذه الأجهزة المتقدِّمة اعتمدت في إحدى البلدان النامية، ولا أقول المتخلِّفة، أكان بمقدورك أن تحظى من خلالها بهذا الذي حصلت عليه هناك؟

أجاب: كلَّا!!

ـ لماذا؟

ـ لأن الآلة وحدها لا تكفي..

قلت: والإنسان وحده لا يكفي، وكلاهما لا يكفيان كذلك، لا بد من التحقق بالعلاقة السليمة بين الطرفين.. لا بد من أخلاقية التحضر أولاً وأخيراً.

فلو عدنا إلى مفردات هذه الأخلاقية وتطبيقاتها اليومية على أرض الواقع؛ لوجدناها ـ إلَّا قلَّة منها ـ لا تكاد تذكر، مما دعا إليه الإسلام وحضَّ عليه، بل أمر أتباعه بالتزامه، وربط بعضه الآخر بمسألة الحلال والحرام.

إن حس النظافة، والذوق، والتأنُّق، وكراهية القذارة والجفاء، وانعدام الذوق أو هبوطه، لممَّا أكد عليه الإسلام، وألحَّ إلحاحاً شديداً لتحويله إلى ممارسةٍ يوميَّةٍ وواقعٍ معيشٍ.

إن القرآن الكريم يدعونا ـ مثلاً ـ أن نأخذ زينتنا عند كل مسجد: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1]،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

وينعى على الذين يحرمون تجميل الحياة وتزيينها ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]، والرسول الكريم ﷺ كان لا يغادر بيته إلا متعطِّراً، وكان يؤكد في أحاديثه على أن للطريق العام حقوقاً، كما أن للإنسان حقوقاً، منها إماطة الأذى، بكل ما تتضمَّنه الكلمة من معنى.

٧

وأحب أن أتوقَّف لحظات عند مسألةٍ ترتبط بهذا كله، وقد يسمِّيها البعض في هذه الأيام (إتيكيت) الطعام.. هل تدري أن الرسول ﷺ قدَّم في سلوكه وأقواله إزاء مسألة تناول الطعام ما يمكن اعتباره أشدَّ الصيغ رقةً وتهذباً في هذه الممارسة التي تتحوَّل على أيدي البعض إلى شيءٍ مقرفٍ تتقزَّز له بعض النفوس الرقيقة؟

تفاصيل كاملة بالفعل والكلمة يريد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعلِّم بها أبناء أمته كيف يتناولون الطعام؛ فيما لا تدانيه طرائق الغربيِّين أنفسهم وفنونهم المعروفة في تناول الطعام.

وغير إتيكيت الطعام، عشرات من تفاصيل سلوكنا اليومي، أراد الإسلام، بقرآنه الكريم وسنَّة رسوله ﷺ، أن يرسم لنا إزاءها المنهج المتحضِّر، الذي ينبثق عن ركائز أخلاقيةٍ موغلةٍ في نفس الإنسان المسلم لأنها مرتبطة الجذور بشيءٍ أكبر بكثيرٍ وأعمق بكثيرٍ: التقوى والإحسان!!

٨

فإذا كان الغربيُّون يمارسون مفردة (التأنق) تلك، أو أياً من المفردات الحضارية الأخرى، بدافع من التقليد الحضاري أو الاستمرارية أو التعوُّد،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

فإنَّ الإسلام يمضي خطوة أبعد لكي يركزها في أعماق الإنسان، ويربطها بعقيدته وإيمانه.. إنه يغرس في عقل الإنسان وشعوره الإحساس بالمسؤولية، ويقظة الضمير، والاستشعار الدائم لرقابة الله، هناك حيث لا يبرر لنفسه البتَّة ممارسة أية صغيرة تخدش هذا الإحساس.. وغير هذه المفردة عشرات، بل مئات من المفردات الأخرى التي تجعل الغربيِّين يتفوَّقون علينا، ولن يكون استيراد تقنيتهم ونصبها في بلادنا حلّاً إن لم يرافقه التحقق بأخلاقية التحضُّر التي دعانا إليها هذا الدين.

ولا أدري وأنا أودِّع صديقي كيف تذكرت عبارة قالها أحد العلماء المسلمين في أعقاب عودته من الغرب، لا تدري جاداً أم هازلاً: لقد رأيت الإسلام هناك ولكنني لم أرَ مسلمين!!




لعبة نقل المتاعب

١

في الشرق الإسلامي كثيرون ممن كلَّفوا أنفسهم، ولعلهم كُلِّفوا، بحمل أسفار المتاعب والعقد الحضارية المستعصية من عالم الغرب إلى عالم الإسلام، والادّعاء بأنها من صنع الإسلام.

ليس هذا فحسب، بل إنهم يضيفون عليها وينفخون فيها من أجل تضخيمها ومنحها حجماً أكبر من حجمها الحقيقي، مع إضافة بعض الأصباغ المحلِّية؛ لكي تتحقق القناعة المطلوبة، ويعتقد السذج من الناس بأن هذا من صنع الإسلام، أو على الأقل من صنع المسلمين والبيئة الإسلامية.

٢

إننا نتذكر هنا ـ على سبيل المثال ـ نموذجاً من عشرات بل من مئات وألوف، تلك الصحفية المصرية المعروفة وهي (تكافح) لمدى يقرب من نصف القرن من أجل تصوير المرأة الشرقية كما لو كانت تعاني من متاعب ومآسٍ، ومعضلات معقدة مستعصية متشابكة، لا تعاني المرأة الغربية عشر معشارها، بل لا تعاني منها على الإطلاق. بل إنها ـ المرأة الغربية ـ يجب أن تُتخذ مثلاً أعلى يتحتَّم أن تحذو المرأة الشرقية حذوه؛ إذا ما أرادت فعلاً تحقيق النقلة المرجوة من الجحيم إلى النعيم.

وكانت هذه الصحفية المثابرة التي سخَّرتْ لمحاولتها حشداً من الصحف والمجلات، وحتى الكتَّاب والأدباء، تسعى إلى تغطية المحاولة والالتفاف على مراميها الحقيقيَّة بصيغٍ وأساليب عدة؛ أبرزها ولا ريب محاولة تعليق المعاناة القاسية للمرأة الشرقيَّة على الرجل المسلم الجاهل، ولكنها من وراء هذا التعليق كانت تشير بإصبع الاتهام، ومن طرف خفي، إلى الإسلام نفسه والبيئة الإسلامية التي صاغها هذا الدين.

٣

ومضت الصحفية المذكورة فيما أسمته معركة تحرير المرأة إلى هدفها المرسوم دون كلل أو ملل.. عقود عديدة والصحف المصرية، وعدد من الصحف العربية تتصادى بالدعوة المترعة حماساً، وتؤكد القول شهراً بشهرٍ وأسبوعا بأسبوعٍ ويوماً بيومٍ، حتى خيل للناس، لكثرة ما أعيد القول ولجَّ في الطلب، أن المرأة المسلمة تعاني فعلاً من الويلات، وأنه قد آن الأوان لتخليصها وبأسرع وقت مما تعانيه.

ولم يكن الأمر صعباً إذا خلصت النية وصدق العزم، فما على هذه المرأة سوى أن تنظر إلى ما تفعله أختها في عالم الغرب فتحذو حذوه، هناك حيث تسترد سعادتها الضائعة، وكرامتها الممتهنة، وحقها المسلوب.

والأصوات المخلصة التي نبَّهت إلى خطورة اللعبة، وخبثها، بل إلى خطئها ابتداءً، كاد أن يطوى عليها، واضطر بعضها فعلاً إلى أن يصمت، أما أولئك الذين واصلوا المجابهة فإن الصخب والضجيج الذي أحاط بدعوى (الصحفية) غطى على أصواتهم؛ فلم يعد يعرف ما الذي تريد أن تقول.

٤

وتدور الأيام دورتها، وتزداد قنوات الاتصال بالحياة الغربية قوة وسرعة وانتشاراً، ويعرف الشرقيُّون من خلال الصحف والمجلات والسينما والإذاعة والتليفزيون والدراسات والأعمال الأدبية المترجمة، كم تعاني المرأة الغربية هناك، وكم تتعذَّب.. ويعرفون ـ كذلك ـ مقدار ما تتخبَّط فيه من مشاكل ومآسٍ ومنغِّصات.. ثم هم يعرفون أن المرأة المسلمة، على ما تعانيه من متاعب بسبب الرجل المسلم الجاهل، لا الإسلام نفسه، إنما تحيا حالة أقرب إلى إنسانيتها، وتكوينها، ومطامحها، من شقيقتها في الغرب بما لا يقبل قياساً!!

وتدور الأيام دورتها فإذا بأصوات قادمة من الغرب، من نسوة غربيات عالمات ومتخصِّصات، لا مجرد دعيَّات أو مهرِّجات، تشير بالحرف الواحد إلى أن الهندسة الإسلامية لدور المرأة في العالم هي الهندسة الوحيدة المنسجمة بإعجازٍ باهرٍ مع تكوين المرأة ومطالبها، ورغائبها الجسديَّة والنفسيَّة، وإن ما عداها ليس سوى الفوضى والتخبّط والضلال، وإن حصيلته لن تكون سوى الشقاء الذي يلف المرأة الغربية رغم ما يبدو ظاهراً من أنها تعيش سعيدةً، ولكنه ليس سوى الديكور الذي يخفي وراءه الوجه القبيح.

٥

وتدور الأيام دورتها فإذا بعالم الغرب يشهد من الوقائع والأحداث في دائرة المرأة، ما يؤكد صدق هذه المقولات جميعاً، فيتجاوز نطاق الجدل إلى ساحة الرؤية المشهودة التي تحمل إقناعها المبين.

ونحن نعرف جميعاً ـ على سبيل المثال فحسب ـ ما حدث في إيطالية. فبعد كفاح دام أكثر من عقد من الزمن قدر البرلمان الإيطالي أن ينتزع

بأغلبية ساحقة حق الطلاق بالنسبة لطرفي المعادلة الزوجية: الرجل والمرأة، واعتبرت الصحف اليسارية ذلك انتصاراً كبيراً لقضيَّة الإنسان.

بينما كان (الطلاق) بالنسبة للصحفية إياها واحداً من الأهداف التي تسترت وراءها، وظلَّت تصوِّب عليها أعْيِرَتها النارية دون كللٍ أو مللٍ لمدى ثلاثين أو أربعين عاماً!!

ترى، ألا تزال هذه المرأة المثابرة تصرُّ على استمرار الحرب ضد الطلاق، الذي هو بمثابة صمام أمان لما قد يصيب الحياة الزوجية من مشاكل وشروخ مستعصية، والذي لم يمارس في عالم الإسلام، رغم حلّيته، إلا في نطاق محدود إذا ما قورن بما شهدته الساحة الغربية نفسها، بما فيه المعسكر الشيوعي، الأمر الذي تؤكِّده الإحصائيات التي لا تميل يميناً أو شمالاً؟

٦

وغير الطلاق مسائل أخرى كثيرة تصوَّرتها صاحبتنا مشاكلَ ومعضلات، وشمَّرت عن ساعد الجد سعياً لحلها، واتخذتها أهدافاً سدّدت إليها سهامها دون كلل أو ملل، لكنها في حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون الوضع الطبيعيَّ الصحيح، المرسوم بعناية، والذي شذَّت عنه المرأة الغربية، فشقيت وتعذَّبت، وهاهي الصحفية إياها تبذل جهوداً استثنائية مضاعفة لكي تدفع المرأة المسلمة إلى الخروج من هذا الوضع، أسوة بما فعلته زميلتها الغربية، مهما تكن النتائج وبغض النظر عن المصير الذي ستؤول إليه.

فهي ـ مثلاً ـ تريد أن تحطِّم حاجز القوامة، قوامة الرجل على المرأة في مؤسسة الأسرة.. لماذا؟

إذا كان الإسلام قد منح الزوجة من الحقوق المادية والأدبية والقانونية ما لم تتمتع به امرأة في العالم.. إذا فهمنا (الحق) طبعاً على أنه قيمة

إيجابيّة ترتبط ارتباطاً عميقاً بالنظام، وتشكِّل جانباً بنائياً في صيرورته، لا مجرَّد تسيُّب وتفلُّت وفوضى وضربٍ على غير هدى.

وإذا كان الإسلام قد رتَّب على الزوج من الواجبات تجاه زوجته ما يمنح حقوقها تلك مزيداً من الحصانة والضمانات.. فماذا لو منح حق قيادة مؤسسة الأسرة للرجل باعتباره أكثر قدرة على ممارسة هذه الوظيفة بحكم موقعه الاجتماعي، وربما ـ اللهم دون حسم أو جزم ـ بحكم عقلانيته وعدم استجابته المبكِّرة للدوافع والمؤثرات العاطفية؟!

ومعلوم أنه ما من تنظيم أو مؤسسة في حضارة ما من الحضارات إلَّا واختيرت لها (القيادة) المتفرِّدة التي تعرف ـ بحكم كفاءتها وإمكاناتها وارتباطاتها ـ كيف تسوسها وتسير بها صوب النموّ، وتجتاز المشاكل والعقابيل، ومعلوم كذلك أن ازدواج السلطة يعني التفكُّك والدمار، وهو يتمخَّض عن حشود من السلبيَّات تفوق كثيراً ما يمكن أن يتأتَّى عنها من إيجابيات.

الصحفية تأبى الإذعان لهذه البداهات، وتصرُّ على استيراد الصيغة الغربية التي تضيع فيها المرأة والرجل معاً؛ حيث تضيع القيادة؛ وحيث تصبح مؤسسة الأسرة مركباً بدون قبطان.

٧

وماذا عن تفرُّغ المرأة للبيت؟ ماذا عن دورها الكبير هناك؛ الدور الواسع المتشعِّب الخطير الذي اعترفت به التجربة الواقعية قبل وبعد تأكيدات الأديان، والشرائع؟

إن الإسلام ـ طبعاً ـ لا يرفض خروج المرأة، لا يرفض توظيفها هنا أو هناك، لا يقف بمواجهة الإفادة من كفاءاتها في هذه الدائرة أو تلك من

دوائر الدولة أو النشاط العام ومؤسساتها، لكنه يرفض ألا تكون هناك ضوابط ومعايير وخرائط دقيقة تتحرك المرأة على ضوئها، فلا تهدر طاقاتها أو تضيع.

والإسلام، كما هو شأنه في كل مسائل الحياة، يرتِّب سلَّماً للأولويات؛ هو بمثابة ضرورة من الضرورات الاجتماعية بل الحضارية، وهو هنا بصدد وظيفة المرأة، يجعل مهمتها في مؤسسة الأسرة هي القاعدة، أو الضرورة، أو المهمة الأولى في وجودها، وبعدها تتسلسل الوظائف والمهمات، على ضوء الحاجة الاجتماعية ووفق الظرف التاريخي الذي يعيشه شعب من الشعوب.

فعندما كانت الدولة الإسلامية الفتية تقاتل خصومها في كل مكان، عندما كانت مهمتها تعزيز مكانتها في الأرض بأيدٍ لم تكن تكفي لتنفيذ هذا الهدف الكبير؛ كان لابد للمرأة أن تدخل طرفاً في المعادلة، وأن تقف إلى جانب الرجل تحمل السلاح وتقاتل.

وعندما كانت الأمة الإسلامية تجابه التحديات الحضارية، بعد الفتح، وتعمل عقلها لتنفيذ قيمها العقيدية في واقع الحياة، وتشكيل التيار الثقافي الذي يحمل صبغتها، كان لابدَّ للمرأة كذلك أن تدخل طرفاً في المهمة، وأن تكتب وتحدّث وتعلّم وتتعلَّم.. إلى آخره..

لم يقل أحد في الحالتين بأن المرأة خرجت عن دورها المرسوم، وأن عليها أن ترجع لكي تظلَّ في البيت. ولكن كانت مهمَّتها كربَّة بيت.. كزوجة.. وأم.. ومربِّية.. هي القاعدة التي أكد عليها الإسلام، وغدت في حسِّ المسلمين بمثابة بداهة من البداهات. وكانت المعادلة بهذه الصيغة واضحةً ومقنعةً، ولم يترتب عليها كما يتوهَّم عُشَّاق جلب المتاعب الحضارية أيَّة معضلة تقتضي دراسةً أو حلاً..

وتجيء الصحفية المثابرة لكي تصرخ على مدى أربعين عاماً بأن على المرأة أن ترفض عبوديتها للبيت، وأن تخرج لكي تحقق أنوثتها وحريَّتها، وتكسب حقها المهدور؛ دون أن تدرك ـ هذه الصحفية ـ أو لعلها تدرك وتتعمد التجاهل، أن أنوثة المرأة لن تتحقَّق إلَّا من خلال وظيفتها الأساسية كزوجة وأم ومربية، وإلا من خلال كونها طرفاً في معادلة الحياة والتخلُّق، تلك التي تضم الرجل والمرأة والأطفال، منذ كان هنالك تقابل بين الرجل والمرأة من أجل استمرار الحياة.

٨

ومسألة التحجُّب، كانت هي الأخرى الساحة التي قدَّمت فيها صاحبتنا فنوناً من الإثارة بالكلمة الحادَّة التي تجرح وتدمي، وبالصورة التي تكاد الأحرف فيها تصرخ حتى تبح أصواتها.

فما دامت المرأة الغربيَّة قد كشفت عن ساقيها؛ فإنه يتحتَّم على المرأة الشرقية المسلمة أن تكشف هي الأخرى عن ساقيها.. وما دامت المرأة الغربية قد عرضت جانباً من ثدييها؛ فإن لزميلتها المسلمة أن تحذو حذوها.. ما دامت المرأة الغربية قد لطَّخت وجهها وهي تغادر البيت بحفنات من الأحمر والأبيض، ورشَّت على جسدها حفنات أخرى من العطور؛ فإن للمرأة المسلمة أن تلطِّخ وترش هي الأخرى.. ما دامت المرأة الغربية تلهث وراء (الموضات) الجديدة في عالم الأزياء؛ فإن المرأة الشرقية يجب أن تلهث هي الأخرى وترغم زوجها على أن يلهث هو الآخر لكي يغطي مطالبها جميعاً..

لماذا؟ هل ثمَّة أية قيمة (حضارية) تكمن في الطبيعة المتعهرة التي تكون عليها المرأة في الشارع أو الدائرة أو المعمل؟ هل ثمة أية عرقلة أو إعاقة للصيرورة الحضارية في كون المرأة ترفض التبرج، وتأبى التزين إلا لزوجها وزميلاتها؟

٩

إن الحديث عن البعد الحضاري لمسألة التحجُّب أو التبرج يطول، ومن أجل الاقتصاد في الكلمات أحب أن أشير إلى واحدة من الظواهر المشهورة؛ تستمد قدرتها على الإقناع من كونها أمراً معيشاً شهدناه بأم أعيننا في هذا البلد أو ذاك من بلدان الإسلام.

إن إقبال الشباب على الفتاة المحجَّبة أخذ يتصاعد؛ حتى كاد أن يسجِّل أرقاماً قياسيَّة. ويستطيع المرء أن يستخلص في هذا المجال المحصِّلة التالية: إذا حدث وأن تساوت امرأتان في الجمال، وربما في الحسب والموقع الاجتماعي، فإنَّ حظ المرأة المحجَّبة من الخطبة يزيد بنسبة ملحوظة عن حظ السافرة.. لماذا؟

الجواب واضح؛ قد لا تدركه صاحبتنا بسهولة بعد إذ التوى تكوينها وغابت عنها بداهات الأشياء.

إن الفتاة المحجَّبة أكثر قبولاً للحياة الزوجية حتى بالنسبة لبعض الإباحيِّين والمتحلِّلين أنفسهم، لأنهم يعرفون جيداً أن هذه الحياة التي تتطلب ثقةً وأمناً واستقراراً شيءٌ، والبهيمية التي تتوخى إشباع الشهوة العابرة شيءٌ آخر.

فالتجربة الجنسيَّة المحضة مسألة بسيطة قد تلبِّي نداءها هذه المرأة أو تلك، ولكن الزواج تجربة معقدة وممارسة مركبة تتضمن أكثر من وجه، وتتداخل فيها دوافع شتى لا تقتصر على المساحة الجنسية الصرفة. ولن تصلح لهذه التجربة مطلق أنثى كما يقول المَنَاطقة، بغضِّ النظر عن كافة الجوانب المعقدة المتشابكة، بل لابدَّ من توفر حد أدنى من الشروط لكي يستقيم البناء ويتماسك، ويتجاوز صيغته الكارتونية التي تنادي بها الصحفية

إياها والتي تجعل من مسألة بناء العائلة، وإشباع حاجة الأبوة والأمومة، وتنفيذ وظيفة استمرارية الحياة، أمراً ثانوياً بالنسبة للتحقق الشكليّ للمرأة المتحرِّرة.

١٠

إن نقل المعضلات الغربية إلى عالم الشرق، ومحاولة وضع رداء إسلامي على جسدها المتقرح، إن كان مقبولاً قبل أربعة عقود أو خمسة، فإنه ليس بمقبول الآن بعد أن أصبح بمقدور قنوات الاتصال اليومي بالحياة الغربية، أن تنقل إلينا دقيقة بدقيقة ما يجري هناك.

ولن يكون بمستطاع ألف أخرى من الصحفية المذكورة أن تطمس على هذا الذي يشهده الجميع لكي ترمي به الإسلام والمسلمين.




شيء من الفكر الوضعي

١

كثيراً ما يتساءل المرء: لماذا يصرُّ الفكر الوضعيّ[1] عموماً، والغربي بخاصةٍ، على التشبُّث بجانبٍ واحدٍ من الفكرة ذات الجوانب العديدة، ويقف عند مساحة محدودة منها، بينما هنالك مساحات شتى؟! ولماذا يصرُّ على تبسيط الظاهرة، وحملها على أن تطلَّ على الإنسان بوجه مسطح واحد، بينما هنالك وجوه عدة؟! ولماذا يتشنج على طبقة واحدة من الحقيقة بينما هي تتضمن طبقات وطبقات؟

إن السبب قد يحمل بُعداً نفسياً ذاتياً صرفاً، فالمفكر الوضعي الذي يكتشف جانباً من الحقيقة، أو مساحة من الظاهرة، أو وجهاً ما من الفكرة، يسعى للاعتقاد بأنَّ ما اكتشفه هو الجانب الوحيد للحقيقة، والمساحة الكلية للظاهرة، والوجه المتفرد للفكرة.. ويبذل جهداً متواصلاً لإقناع أتباعه بذلك، ولشدة التكرار والإلحاح يتوهَّم هؤلاء أن ما يقوله هو الحق، وأن اكتشافه الفكري هو الصواب، وأنه يتضمن أطراف الحقيقة أو الفكرة أو الظاهرة كافة..

إنه نوع من الرغبة في تعبيد الناس للمفكِّر، وكسب إعجابهم وانبهارهم من خلال أطروحاته الفكرية المعززة باستنتاجات ومعطيات متواصلة لتأكيد أنها الحق المطلق، وأن ما وراءها الباطل والضلال. وهو يبني موقفه هذا،

---

(١) المقصود هنا هو المدلول اللغوي لا الاصطلاحي لكلمة (الوضعية).

أو كسبه غير المشروع إذا صح التعبير، على ما قد يتضمَّنه العقل البشري من قصور، وعدم قدرة على الإلمام بجوانب الحقيقة، وافتقاده النظرة الكلية التي تستشرف أطراف الظاهرة من كل مكان.. هذا العقل الذي يظلُّ يعاني من نقصه هذا طالما هو لم يستهدِ بدين سماوي.. ببرنامج عمل موضوعيّ يجيء من السماء، ويمنح الإنسان والعقل الإنساني، بما يتضمنه من علم إلٰهي شامل، القدرةَ على تجاوز النظرة أحادية الجانب، والتوغُّل لإدراك جوانب الحقيقة ومساحاتها وطبقاتها جميعاً.

٢

إن المفكِّر الوضعي ليمارس هنا نشاطاً ضد المنهج، ضد الموضوعيَّة والتجرّد العلمي.. وهذه الضدية تجيء على حساب الحقيقة.

نعم قد يكسب المفكر الجولة، وقد يلتفُّ حوله المريدون والأتباع، وقد يوحي لفترة طويلة من الزمن أنه وضع يده على مفاتيح الحقيقة، وأنه سبر غورها العميق، ولكن الخاسر في هذه اللعبة التي تكررت على الساحة الأوروبية عشرات القرون، هو الحقيقة، والإنسان الذي يتوخَّى معرفتها وإدراكها في نهاية الأمر.

ويقوم هذا النشاط الذي يمارسه المفكر ضد المنهج والموضوعية على محاولة توسيع مساحة (الاكتشاف)، لجعله يلفُّ الظاهرة كلها... مطّه بأي أسلوب لكي يحيط بالفكرة من جوانبها كافة.. إرغامه على التضخُّم لكي يوازي الحقيقة طولاً وعرضاً وعمقاً..

٣

والمشكلة أن هذا الاكتشاف الذي يحمل قيمته الكبيرة بحد ذاته، قد يغطي مساحة من الظاهرة.. قد يفسر جانباً من الفكرة.. قد ينشر شعاعه

على جهة محدودة من الحقيقة لكي يضيئها.. ولكن تبقى دائماً مساحات وجوانب أخرى من الظواهر والأفكار والحقائق لا يكفي الاكتشاف، إن على مستوى النوع أو على مستوى الكم، لتفسيرها وإضاءتها، لا بد من اكتشافات أخرى وإضاءات مَتتالية، تأخذ طابع التتابع والتكامل، وتسلِّط على الحقائق والظواهر والأفكار جميعاً، ويسهم فيها خط طويل من المفكِّرين، وعقول متألقة لايحصيها عدٌّ.. وعند ذلك قد تصل إلى تفسير هذه الظاهرة أو تلك، وقد لا تصل أساساً..

٤

لكن العلوم الإنسانية شهدت صيغة أخرى في العمل.. صيغة الانفراد، والذاتية، والادعاء، والتضخُّم.. ولذا لم تستطع أن تقدم للإنسان عشر معشار ما قدمته العلوم النظرية والتطبيقية.. ولهذا ـ أيضاً ـ آلت إلى الفشل والسقوط الواحدة تلو الأخرى..

فعلى سبيل المثال: لماذا يصر عقل فذ كـ(هيغل) على جعل الجدل، أو الديالكتيك، أو التقابل المتضاد بين الحقائق والتجارب، يقتصر على نطاق (الفكرة)؟ ولماذا يجيء (ماركس) و(أنجلز) بعده لكي يديناه على أحادية نظرته، بل على وضعها المقلوب، لكنهما ما يلبثان أن يقعا في الخطأ نفسه فيتشنجان على نظرية الديالكتيك المادي، أي الجدل في نطاق المادة وحدها؟

إنهما يتهمان (هيغل) بأنه وضع فلسفة «تمشي على رأسها»، لكنهما وهما يسعيان لتعديل الوضع الفلسفي، قدما فلسفة تمشي على بطنها بحثاً عن الخبز وحده.

أما كان من الأوْلى أن يتجاوز (هيغل) تشبثه بالفكرة، وأن يبعد (ماركس) و(أنجلز) قليلاً عن الأرضية المادِّية، وأن يحاول الطرفان وضع صيغة للجدل أكثر شمولية تتضمَّن الفكريَّ والماديَّ معاً؟

ثم لماذا يصرُّ الطرفان على أن الجدل بين الأفكار أو الصيغ المادية يأخذ طابع التناقض والتضادّ، ويقود دوماً إلى الاصطراع؟ ألا يتحتم أن تضاف إليه صيغ أخرى للعلاقة تأخذ طابع (التبادل) بدلاً من التضادّ؟

تبادل في الأخذ والعطاء دونما ضرورة لصراع محتوم، ودونما اطراح لبعض العناصر من هذا الجانب أو ذاك، بل بلورته وتثبيته وإضافته للموحّد الجديد..

وغير (هيغل) و(ماركس) و(أنجلز) كثيرون جداً..

٥

إن ثمّة أسئلة كثيرة تخطر على بال الإنسان وهو يتعامل مع الفكر الوضعي، ولئن لم تحظَ بأيٍّ جواب؛ فإنَّ ثمّة ما يشبه القناعة تبرز لكل ذي عينين: إن النظرة أحادية الجانب، تلك التي تأخذ بخناق هذا الفكر، إن هي إلّا انعكاس لنوع من الادعاء والغرور، وربما الكذب، سواء شئنا أم أبينا.. والمفكّرون الغربيّون هم كما يصفهم كتاب الله:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾(١).

تلك هي أزمة الفكر الوضعي من جهة المفكّر نفسه، أي من الزاوية التي يطلُّ بها على العالم، والمنهج الذي يعتمده في التعامل مع الظواهر والحقائق والأشياء..

ولكننا نريد أن نقف لحظات في الجهة الأخرى، جهة العقل الغربي المتلقي وهو يتعامل مع معطيات مفكّريه: مذاهب ومدارس وعقائد ونظريات.. جهة المثقّفين الغربيّين وهم ينتمون إلى هذه المدرسة أو تلك وإلى هذا المذهب أو النظرية أو ذاك..

(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.

فهاهنا أيضاً نجابه بعدد من الأخطاء المنهجية في طبيعة هذا التعامل، ويكمن أكبر هذه الأخطاء وأشدها وضوحاً في المشكلة نفسها التي يعاني منها المفكر واضع النظرية، أو مصمِّم المذهب، تلك هي ـ مرة أخرى ـ النظرة أحادية الجانب، حيث يمارسَ المثقَّف ما يمكن اعتباره خداعاً وتضليلاً على حساب الحقيقة، أو ما يمكن اعتباره خطأً منهجياً على أقل تقدير.

إنه يصدق فعلاً أن «الاكتشاف» الذي حققه هذا المفكر أو ذاك، ومطّه ونفخ فيه لكي يجعل منه نظرية، أو مذهباً، يفسر كل شيء، ويلقي ضوءه على كل معضلة أو مسألة غامضة في الوجود والعالم، يصدق أن هذا الاكتشاف هو الحق المطلق.. الرؤية المتفرِّدة.. الكشف النهائي للسنن والقوانين التي تحرك العالم، وتفسر معطياته في الوقت ذاته.

وهم، أي المثقَّفون، يدفعون أنفسهم إلى نوع من الاستسلام لهذا التصور، يصل بهم أحياناً حدَّ الوثنية والتعبُّد، فيفقدون القدرة على أي تفكير مستقل يخرج بهم عن دائرة المذهب الذي انتموا إليه، والمفكر أو الفيلسوف الذي آمنوا به.. بل إنهم يعتبرون أية محاولة لتجاوز أطروحات المذهب خروجاً على التعاليم المقدسة، وهرطقة يستحقُّ صاحبها أشد العقاب.

٦

وإذا كان المفكر الوضعي يتخذ موقف المعلم المطلق، أو صاحب الاكتشاف المقدس، لتحقيق حاجة ذاتية في تركيبه الخاص، فما الذي يجعل المثقف المتلقِّي، أو التابع، يتَّخذ موقف التسليم المطلق والانقياد الأعمى للفكرة أو الاكتشاف؛ ويتشنَّج عليهما ويعتبرهما الحق الذي ليس وراءه سوى الضلال؟.

قد يلعب البعد النفسيُّ دوره هنا أيضاً.. فإن الانتماء لمذهب ما، والمبالغة في الاعتقاد بأنه الحق المطلق واليقين الكامل، يمنح الذات فرصة

للتحقُّق والتوازن والامتلاء، ويشبع فيها حاجات كانت في كثير من الأحيان بمثابة الدافع القوي للسلوك البشري.

لكن هذا وحده لايكفي.. إنه ـ مرة أخرى ـ القصور العقليّ.. عدم قدرة الإنسان على بلوغ اليقين المطلق، أو رؤية الحقيقة كاملة، طالما هو رافض للتلقِّي عن العلم الشامل، ومن ثم يجد نفسه أسير التجزيئية، والقصور، والرؤية ذات البعد الواحد.

وهو من أجل تجاوز محنته، بل بسبب من اعتقاده بقدرته العقلية الفائقة، يندفع للتصديق بهذه النظرية أو تلك، والتسليم بهذا الكشف أو ذاك، لا لأنها بحد ذاتها تحمل الصواب المطلق، بل لأنه هو نفسه لا يملك المقاييس الموضوعية النهائية للحكم عليها، ومن ثم فقد يمتلك القناعة الكافية، المتناسبة مع قدراته المحدودة، في أن هذا الذي يطرحه مفكرٌ أو فيلسوفٌ ما هو الصدق واليقين والحق، وأن الانتماء إليه يمنح الفكر معادلاته الموضوعية، وتوازنه، واستقراره.

٧

إن المشكلة، مرة أخرى، تكمن في غياب الرؤية الدينية، وانعدام المقاييس الموضوعية التي تنبثق عن العلم الإلٰهيّ الشامل.. وهنا، في الساحة التي يتفرَّد فيها بالسلطان العقل ذو القدرات النسبيَّة، يصبح الانتماء مجرد اجتهاد شخصي قد يخطئ وقد يصيب، وهو حتى إذا أصاب فإنه لا يتحقَّق بالمعرفة الكلية اليقينية الشاملة، لأنه ليس بمقدور عقل بشريٍّ أن يبلغ شواطئها.

وهنا قد يسأل المرء: إذا حدث وأن طرح مفكر ما كشفاً أو نظرية تناقض في جوهرها كشف مفكِّر آخر أو نظريته، فمن يكون من أتباع كلا المفكِّرَيْن على حق، ومن يكون على ضلال؟

إن هذا التناقض الطولي بين مفكّر وآخر يعملان في مجال واحد، من مثل التناقض بين (ماركس) و(هيغل)، يكفي وحده أن يهز قناعات الأتباع بكل الربوبيات والصنميات الفكريَّة، لكن هذا لايحدث، لأن القصور الفكري وضياع المقاييس الشموليَّة، فضلاً عن الحاجات والدوافع النفسية في الاحتماء بهذه النظريَّة أو تلك، والامتلاء بقناعاتها، يمنع مثل هذا المصير.

٨

مهما يكن من أمر فإن بعض المفكرين بسبب من تضخُّم إحساسهم بالقدرة على الكشف، وبأن كشفهم هذا قدير على الامتداد لتغطية جوانب الحقيقة كافَّة، وتفسير كل شيء، بسبب من هذا يتجاوزون ـ أحياناً ـ دوائر تخصُّصهم، ويوغلون في مجالات ودوائر أخرى للمعرفة قد لا يملكون من الأدوات والوسائل ما يمكنهم من أن يحقِّقوا فيها ما حققوه هناك في حقل تخصُّصهم وإبداعهم.

وإذا كان الدافع لهذا السلوك واضحاً، فما الذي يدفع (الأتباع) إلى تقبّل هذا الموقف، واعتبار معطيات المفكر، حتى في مجالات تبعد عن تخصُّصه، بمثابة الحقيقة النهائية هي الأخرى؟

إن هذا بالذات هو مايحدث بالنسبة للماركسيِّين ـ على سبيل المثال ـ وهم يتعاملون مع اكتشافات (ماركس) في حقول الاقتصاد والفلسفة والتاريخ، فيرونها جميعاً بمثابة الأمور التي تتجاوز حدود الحقائق الاختبارية، إلى نوع من القدسية التي يتحتم ألَّا يمسّها أحدٌ بأية صيغة من صيغ التساؤل والشك.

فإذا كان (ماركس) متضلِّعاً في حقل الاقتصاد، وقدم في دائرته كشوفاً ذات قيمة كبرى، فما الذي يحتم على أتباعه قبول كل معطياته وكشوفاته في

مجالين آخرين قد لا يكون صاحب القول الفصل فيهما وهما الفلسفة والتاريخ. .

إن الفلسفة التي تتعامل مع المادة لا يمكن أن تمنحنا قناعات كافية إن لم تبدأ من المختبر، وتنبثق عن أسس فيزيائية علميَّة كما يفعل رجال من أمثال (هايزنبرغ) و(أينشتاين) و(كاريل) وغيرهم.

والبحث في التاريخ، ما لم يستكمل تفاصيل وجزئيات كل عصر وبيئة لا يمكن أن يمنحنا نتائج نهائيَّة.

٩

وعلى ضوء هاتين البديهيتين يمكن أن نقيِّم معطيات (ماركس) في هذين الحقلين، ونحن لا زلنا نذكر عبارة الباحث الاقتصادي (أوسكار لانكه)، وهو أحد أكبر أخصائيي اقتصاد الدول النامية؛ فهو بعد أن يستعرض جهود الكتَّاب الذين اهتمُّوا بدراسة اقتصاد مجتمعات ماقبل الرأسمالية منذ عصر (ماركس) وحتى عصر (بورشييف)، يقول ما معناه: «ولكن هذه الدراسات جميعها مفكَّكة، لذلك فإن الاقتصاد السياسي للنظم الاجتماعية ما قبل الرأسمالية لمَّا يخرج بعد إلى حيِّز الوجود، باعتباره فرعاً منظماً من فروع الاقتصاد السياسيّ»[1].

ولكن هل يكفي هذا كله لفك الارتباط الوثنيّ بين الأتباع والأرباب، وتجاوز تقاليد قرون طوال سادت الفكر الغربي ولا تزال؟.

---

(١) انظر كتابه (الاقتصاد السياسي): ١/١٤٨، ترجمة د. محمد سلمان الحسن (عن محمد علي نصر الله: أضواء على نمط الإنتاج الآسيوي، مجلة آفاق عربية، سنة ٢، عدد ٦، ١٩٧٧م).

دعوة إلى مدّ الحياة

١

ومـن دعـا الـتـاريـخ فـي صـدره أضـاف أعـمـاراً إلـى عـمـره..

وأنا أتذكر هذا البيت تذكَّرت في الوقت نفسه كيف يمنح الإسلام الإنسان فرصةً فذةً لمدّ رحلة حياته القصيرة وإغنائها، وجعلها أعماراً لا تحصى بدلاً من العمر الضيِّق، المسطَّح، الواحد، القصير الذي يعرفه الإنسان العادي ويتألم من ضيقه وقصره وسرعة انصرامه!!

إن الشاعر يريد أن يقول هنا بأنَّ إدراك التاريخ، والإلمام بدقائقه المتلاحقة الموغلة في الزمن، ومعايشتها كما لو كانت واقعة اللحظة، يمنح حياة الإنسان امتداداً في الماضي يضيف من خلاله الكثير من التجارب والمواقف والأحداث إلى مكونات هذه الحياة المحدودة، فيمتدُّ بها ويغنيها بأعمار جديدة لا تعدُّ ولا تحصى..

٢

في القرآن الكريم دعوة (يومية) في الاتجاه نفسه، إن آياته البينات ترحل بالمؤمنين عبر كل تلاوة في مجرى الزمن، وتحكي لهم عن وقائع التاريخ المزدحمة، وأحداثه المتلاحقة، ومعطياته المتمخِّضة عن القيم والعبر والدلالات، معظم سور القرآن تضرب على الوتر نفسه، فلا تخلو من واقعة تاريخيَّة أو حدث ماضٍ أو دعوة لاستلهام المغزى من هذه التجربة أو

تلك. . إن الامتداد الذهني والوجداني إلى الماضي يشكّل مساحةً واسعةً في كتاب الله، وقد تحدَّثتُ عن الموضوع بإسهاب في مقدمة كتاب (التفسير الإسلامي للتاريخ). . لكنني هنا بصدد مسألة أخرى. . إن تأكيد القرآن على المعايشة التاريخيَّة، وإعادة عرضها المرة تلو المرة، بأسلوب مؤثر وصيغ تهز الوجدان، يلعب دوره في إغناء حياة الإنسان، ومدها وتكثيفها ومنحها الفرصة لأن تكسب ـ بتعبير الشاعر ـ أعماراً أخرى. . لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. . إن القرآن الكريم والتجربة الإيمانية عموماً، تسعى لأن تمدَّ أبصار الإنسان إلى المستقبل القريب والبعيد جنباً إلى جنب مع التوجه صوب الماضي. وهذا النزوع المستقبلي كما أنه يؤكّد حركية الإسلام على المستوى العام، فإنه على المستوى الوجودي الخاص إذا صح التعبير ـ يمنح الإنسان فرصةً أخرى لمد حياته وإغنائها، وكسب رصيد زمني تتضائل إزاءه السنون الخمسون والستون، أو حتى التسعون التي تحسب عمراً للإنسان.

وأي مستقبل هذا الذي يتواصل معه الإنسان المسلم؟

إنه زمن مفتوح على مصراعيه، ممتد في الأبدية، لا تقطّع فيه ولا حواجز ولا زوال. . إنها الرؤية التي تلغي واقعة الموت من حسابها، فتحرر الإنسان من عمره المحدود، وتطلقه في المدى عبر آلاف السنين صوب يوم الحساب!!

ويوم الحساب في كتاب الله قريب بعيد. . ومهما يكن من قربه أو بعده فإنه يجيء بمثابة بدء لزمن الخلود الذي لا ينتهي أو ينعدم أبداً. .

كل منا تملّكه هذا الإحساس اللذيذ، المطمَئن، العزيز، بين الحين والحين. . وأن عمره ليس بمحدود، وأن زمنه ليس بفانٍ، وأنه ممتد بمشيئة الله وقوة الروح في الزمن القادم. . وليس الموت حاجزاً أو فاصلاً، ليس الموت نهاية طريق أو باباً موصداً. . إنه مجرد نقلة، نقلة سريعة، ينطلق الإنسان بعدها لمواصلة الحياة بهذا الشكل أو ذاك، مما لا يعلم كنهه إلا الله سبحانه.

كلٌّ منا أحسَّ، في مجابهته الضغوط النفسية والمتاعب التي لا تنقضي والأحزان المتجددة، أنه قدير على تجاوز الأسر، والانطلاق في الزمن حيث لا خوف ولا تناقص ولا عدّ تنازلي باتجاه لحظة الأفول الأخيرة..

إن رحلة الإنسان في التصور الإسلامي ماضية إلى هدفها.. طويلة مديدة.. وإنها وهي تتوجَّه صوب يوم الحساب القريب البعيد لتأمل في معانقة خلودها الموعود!!

وما أروعه من إحساس يملأ وجدان الإنسان وعقله وقلبه باقتناع ليس إلى تعريفه من سبيل، ويدفعه إلى نفور جارف ورفض حاسم لكل أولئك الذين رأوا في حياتهم الدنيا فرصتهم الأولى والأخيرة، وفي سنيِّهم الخمسين والسبعين عمرهم الوحيد.. أيكون الإنسان، بعد هذه الرحلة القصيرة، لقمةً سائغةً للعدم؟ إنَّه تصوُّرٌ تضيق معه نفس المؤمن الذي يرفض خرافة العدم هذه، حتى ليكاد يختنق وهو يعاينها من بعيد..

لقد خُلق الإنسان لكي يظل موجوداً.. لكي يمتد في الزمن؛ فلا يكون عرضة لانعدامٍ أو فناءٍ.. إن هذا هو الذي يميِّز الإنسان عن الحيوان والأشياء.. إنها مرهونةٌ بعمرٍ محدودٍ، تتلاشى بعده وتضيع.. أما الإنسان فإنه يتفرَّد على الكائنات، ويظلُّ ممتداً في الأبديَّة، دائماً في الزمان.. ليس الإنسان (شيئاً) أو (حيواناً)!!

٤

والقرآن الكريم معروفة طرائقه الفنية المؤثرة في التعامل مع الزمن.. إنه يتنقَّل بحريَّة بين الأزمان الثلاثة.. يلغي الحواجز ويزيل المتاريس، ويمضي يحدِّثنا عن وقائع الكون والحياة والعالم.. الماضي وكأنه يتخلَّق أمام أعيننا.. المستقبل وكأنه أصبح ماضياً.. الحاضر وكأنه ممتدّ، ممتدّ، ماضياً

ومستقبلاً.. فلا أول له ولا انتهاء.. «من أجل هذا يغدو (التاريخ) في القرآن الكريم وحدة زمنيَّة، تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وتتعانق هذه الأزمان الثلاثة عناقاً مصيرياً.. حتى الأرض والسماء.. زمن الأرض وزمن السماء.. قصة الخليقة ويوم الحساب.. تلتقي دائماً عند النقطة الحاضرة في (بانوراما) القرآن.. فهذا الانتقال السريع بين الأزمان الثلاثة يوضح حرص القرآن على إزالة الحدود التي تفصل بين الزمن باعتباره وحدة حيوية متصلة، فتغدو حركة التاريخ التي يتَّسع لها الكون حركةً واحدةً، تبدأ يوم خلق الله السماوات والأرض، وتتَّجه نحو يوم الحساب. إن الحياة الدنيا فعل تاريخي مستمر يتشكل من الماضي والحاضر، ويرتبط بمستقبل يوم الحساب الذي هو بمثابة المصير النهائي لفاعلية الإنسان في العالم.. ولهذا يقدِّم لنا القرآن وصفاً رائعاً يتميَّز بالحيوية والتدفُّق لمجرى التاريخ البشري، وبهذا التوافق بين الماضي والحاضر والمستقبل، وينقلنا بخفة وإبداع بين الآونات الثلاث؛ حيث تذوب الفواصل والحواجز وتسقط الجدران»[(١)].

وهذا التوحُّد في الزمن، هذه الرؤية الامتدادية التي تلمُّ الماضي والحاضر والمستقبل وكأنها طريقٌ واحدٌ غير منصرمٍ ولا مقطوعٍ.. هذا الموقف الشمولي الذي يصور آدم وذريته جيلاً واحداً من الناس؛ منذ لحظة الهبوط إلى العالم وحتى يوم الحساب.. تمنح الإنسان المسلم قدراً هائلاً من التحرُّر.. من الإحساس بالقدرة الجارفة على الاستجابة لتحدِّيات الموت والانقطاع والفناء.. بل على تحديها ومجابهتها واختراقها.. إنه حيٌّ موجود على أية حال.. هنا في الأرض أم هنالك في السماء.. هنا في الحياة الدنيا أم هنالك في السموات العليا.. في زمن الفناء أم في الدنيا الخلود.. إنه حيٌّ موجود.. فممَّ يخاف؟ وعلامَ؟ إن القرآن الكريم يقولها بوضوح:

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، للمؤلف، ص ١٤.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١].

وإنه للمفتاح الذي يفسر لماذا كانت جماعات المسلمين تتهافت على الموت.. تتعشَّقه.. تركض إليه ركضاً.. تتزيَّن وتطهِّم خيولها وهي ذاهبةٌ إليه.. لقد كان الموت دائماً بمثابة العرس الذي يزفُّ أرواح المجاهدين إلى الخلود.. وكانت لياليه المترعة تصنع الفجر الإسلامي المرَّة تلو المرَّة..

لقد كانت جماعات المسلمين، ولا تزال، تحمل هذا الإحساس المترع بالديمومة.. بالاستمرار.. بالتواصل الذي لا تقطُّع فيه ولا انصرام.. فما الموت؟ وما القتل؟ وما الشهادة؟ إنهم (موجودون) قبل الموت وبعده.. (حاضرون) قبل القتل وبعده.. أحياء في الأرض والسماء..

لقد فتح المسلمون العالم.. غيَّروا خرائطه.. أسقطوا دولاً وممالك وإمبراطوريات.. سحبوا العروش المحمَّلة بالذهب والفضة من تحت الأكاسرة والقياصرة.. أعادوا صياغة الوجود من جديد.. فعلوا هذا كله لأنهم كانوا يحملون مفتاحه الوحيد: حب الموت، ليس لأنهم يريدون أن يموتوا، ولكن لأنهم يطمحون للحياة.. يتعشَّقون الدوام والامتداد.. وما كانوا بقادرين على تحقيق أمنيتهم الكبيرة هذه دون مجابهة الفناء..

٥

وثمَّة ما يمنح المسلم امتداداً لحياته، وإغناءً لتجربتها، وتكثيفاً لوجودها، باتجاهٍ آخر: العالم والطبيعة والكون..

إن الإسلام يدعوه صباح مساء.. وكتاب الله سبحانه يناديه ليل نهار أن يفتح عقله وقلبه وحسه ووجدانه وبصيرته على العالم والطبيعة والكون..

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

أن يعيشها ويعيش فيها.. أن ينمي تجربته لكي تستوعب العالم والطبيعة، وأن يوسّع مدى رؤيته لكي تعانق السماوات العليا وتلفَّ أقطار الكون..

يكفي أن نطالع في القرآن دعوته الملحة للنظر في صفحات النفس والطبيعة والعالم.. في كتاب الكون المفتوح، لكي يتبين لنا المدى الشاسع الذي لا تحدُّه حدود، والذي يريد الإسلام للمنتمين إليه أن يتحرَّكوا خلاله ويجوسوا عبر آفاقه البعيدة..

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[١].

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٣].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٤].

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٦].

(١) سورة عبس، آية: ٢٤ فما بعد.
(٢) الأعراف: ١٨٥.
(٣) ق: ٦-٧.
(٤) الغاشية: ١٧.
(٥) الروم: ٥٠.
(٦) الأنعام: ٩٩.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[٣].

وإن الإنسان المسلم يحسُّ إحساساً غامراً، مترعاً بالغبطة والنشوة والفرح؛ بأنَّ وطنه الحقيقي ليس المدينة التي يولد فيها، أو الأقليم الذي يحيا فيه، أو الدولة التي يحسب عليها.. إن وطنه هو العالم كله.. وأرضه هي الطبيعة على امتدادها.. وبلاده الكون على مداه.. إنها قد سخِّرت له جميعاً، وهو سيد المخلوقات وأكرمها عند الله.. يتحرَّك فيها كما يشاء، ويصوغ من طاقاتها وكنوزها حياته السعيدة المؤمنة.. ويتوجَّه من خلال إبداعها وجمالها وتنظيمها المعجز.. إلى الخلاق المبدع الذي صنع هذا كله..

إنه ـ مرَّة أخرى ـ إحساس مترعٌ بالغبطة والثقة، والاستعلاء والنشوة، والفرح والامتداد، هذا الذي يحتويه صدر المسلم وعقله ووجدانه وقلبه، وهو يحس بأنه ابن هذا العالم، وأن وطنه الحقيقي الكون كله على امتداده المفتوح..

إن الإسلام هنا يمدُّ العمر الإنساني في الطبيعة والعالم والكون، كما كان هناك يمده في التاريخ والمستقبل.. هنا يمدُّه في المكان وهناك يمدُّه في الزمان.. وهو في كل الأحوال يمنح الإنسان ألف فرصةٍ وفرصةٍ لتجاوز عمره المسطح المحدود، صوب عمر مترع عميقٍ غير محدود!!

---

(١) يونس: ١٠١.

(٢) العنكبوت: ٢٠.

(٣) الحجر: ١٦.

٦

ومن خلال هذا الامتداد الأفقي في الزمان والمكان؛ يخطو المسلم بامتداد عمقي في الروح والنفس والفكر والحس والوجدان..

إن رؤيته الإيمانية تتطلَّب منه أن يجعل من حياته تجربةً جيَّاشةً بالفعل، والديمومة والتحقق، مترعةً بالحسِّ والتأمُّل والتفكير.. طافحةً بالغبطة والفرح والاطمئنان واليقين.. إن الروح لتزداد غنىً (بالنظر) الدائم الذي يدعو إليه كتاب الله.. والعقل ليزداد إدراكاً (بالتفكُّر) الدائم الذي يدعو إليه كتاب الله.. والحسِّ ليزداد امتلاءً بالتعامل المكثَّف مع الطبيعة والعالم، ذلك الذي يدعو إليه كتاب الله.. والوجدان ليزداد شفافية ورقّة وصفاء بالمعاناة الدائمة التي يدعو إليها كتاب الله.. إن العمر الحقيقي الذي يليق بمكانة الإنسان في العالم هو ذلك الذي يتحدَّث عنه القرآن الكريم وهو يحكي عن أولئك:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[١].

إنها ـ من حيث التفتنا ـ دعوة لتعميق الخبرة البشرية.. لمدِّ التجربة إلى الجذور البعيدة.. وإنها لفرصة فذة للعمر المحدود أن يزداد اتساعاً وتوغلاً وامتداداً صوب الأعماق، تماماً كما كان هناك يزداد اتساعاً وتوغلاً وامتداداً صوب الآفاق.. هنا في صميم النفس، وهنالك في أبعاد الزمان والمكان..

ترى.. أبَعْد هذا كله.. دعوة لمد الحياة البشرية، وتكريمها، وإغنائها، ومنحها الفرصة لأن تعيش عمرها كاملاً غير مسطَّح ولا منقوص..

كدعوة هذا الدين؟!

---

(١) آل عمران: ١٩١.

موقف إزاء الإنسان
مقارنة في السلوك الحضاري

إن تغيير أو تبديل أفكار الآخرين، فيما يمكن تسميته بالتحوير الفكري، اتخذ عبر التاريخ البشري، ولا يزال، طريقتين اثنتين؛ تقوم أولاهما على الإقناع الحر الذي يعتمد على الحجة والبرهان والجدل المتكافئ بين الطرفين، وهو الأسلوب السليم الذي لا غبار عليه.. وتقوم ثانيتهما على الإكراه والقسر لحمل الآخرين حملاً على تغيير أفكارهم وقبول أفكار الطرف الآخر.. ويبلغ أقصى درجات حدَّته فيما يسمى اليوم بغسيل المخ أو الدماغ، الذي يعتمد طرائق علم النفس الحديث وكشوفاته لتحقيق هذا الهدف.. تلك الطرائق والكشوفات التي إن كان اعتمادها يستهدف الكشف عن جريمة أو فعل جنائي، وخدمة المؤسسات التحقيقية والقضائية بالتالي، واختصار الطريق عليها، يعد عملاً مقبولاً.. فإنَّ اعتمادها لإرغام الآخرين على تغيير أفكارهم وقناعاتهم لا ينسجم أساساً وبداهات الكرامة البشرية، وحرية الإنسان في المجتمع الذي يعيش فيه، واحترام عقله..

وقد أكَّد القرآن الكريم على رفض الأسلوب الثاني، وسمَّاه (فتنة)، واعتبره خطيئة كبرى تفوق جريمة القتل، على شناعتها، فقال:

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1].

---

(١) البقرة: ١٩١.

.. ودعا إلى توسيع مفهوم الاختيار الحرّ في ميدان الفكر والعقيدة؛ فقال:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقال:

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[2].

وقال:

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[3].

﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾[4].

.. كما أكّد الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) و(الموعظة) للوصول إلى النتائج الصحيحة، ولدعوة الآخرين إلى العقيدة الجديدة على ضوء قدرٍ كافٍ من الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص، وإعمال الفكر والمنطق:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[5].

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[6].

---

(١) البقرة: ٢٥٦.
(٢) يونس: ٩٩.
(٣) ق: ٤٥.
(٤) الأنعام: ١٠٤.
(٥) البقرة: ١١١.
(٦) المؤمنون: ١١٧.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[2].

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[3].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[4].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[5].

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[6].

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[7].

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[8].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[9].

---

(١) النمل: ٦٤.
(٢) القصص: ٧٥.
(٣) القصص: ٣٢.
(٤) الأنعام: ١٤٩.
(٥) الأنعام: ٨٣.
(٦) هود: ٣٢.
(٧) العنكبوت: ٤٦.
(٨) النحل: ١٢٥.
(٩) الحج: ٨.

وموقف القرآن الكريم من العقل البشري واضح بيِّن في معظم سوره ومقاطعه وآياته.. وإن دلَّ هذا على شيءٍ؛ فإنَّما يدلُّ على أن الأفكار والعقائد التي يقبلها العقل أو يرفضها يجب أن تترك للعقل نفسه، وألا يعتمد من الأساليب والوسائل ما يتجاوز مكانة العقل البشري، وينزل بها إلى مستوى القسر والإرغام على تحوير قناعاتها، أو تفريغها، لتقبل أفكار أو معتقدات لا تقوم عليه الحجة، ولا يسندها جدل أو برهان..

ومعروف أن القرآن الكريم أعطى الحواس، التي هي إحدى مداخل المعرفة العقلية، مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوةٍ يخطوها الإنسان في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب؛ فقال:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[١]..

وطلب من المؤمنين أن يحرّكوا بصائرهم وعقولهم للوصول إلى الحق الذي لايقوم الكون إلا به، فقال:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[٢]..

وبين أن الإنسان مسؤول عن اعتماد إمكاناته الذاتية التي منحه الله إياها؛ لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[٣].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤].

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ

---

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) الأنعام: ١٠٤.
(٣) الإنسان: ٢.
(٤) البقرة: ٢٤٢.

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

هذا إلى أن كلمة (العلم) تأتي في القرآن الكريم مرادفةً لكلمة الدين نفسها؛ حيث يغدو العلم والدين سواءً، الأمر الذي يؤكد موقف القرآن من العقل وضرورة احترامه، كما يؤكد أنه ليس هناك أي تناقض بين العلم الصحيح وبين معطيات الدين:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[٤]..

ولا بدَّ أن نشير هنا إلى أن كلمة علم، بتصريفاتها المختلفة، وردت فيما يزيد على سبعمئة وخمسين آية في كتاب الله..

وهذه المعطيات القرآنية تؤكِّد على أن الطريقة التي جاء بها الإسلام لدعوة الأفراد والشعوب والأمم إلى الدين الجديد؛ إنما كانت تعتمد على قناعات العقول لاعلى قسرها وإرغامها..

وقد شهد تاريخ الدعوة الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ، وطيلة العصور التالية، حيث انتشر الإسلام في مساحاتٍ واسعةٍ من العالم،

---

(١) الأنعام: ٥٠.
(٢) البقرة: ١٢٠.
(٣) آل عمران: ٧.
(٤) النساء: ١٥٧.

اعتماد أكثر الأساليب مرونةً وتقديراً للحرية البشرية.. ويمكن الرجوع في هذا المجال ـ على سبيل المثال ـ إلى الكتاب القيم الذي ألَّفه المستشرق الإنكليزي السير توماس أرنولد T. Arnold، والمعنون بـ (الدعوة إلى الإسلام) The Preaching To Islam[١]، والذي يتضمَّن تحليلاً مدعماً بالوثائق والنصوص للصيغ الإنسانية التي اتبعها الإسلام خلال حركة انتشاره التاريخية؛ منذ فجر الدعوة وحتى العصر الحديث.

والكتاب يمثِّل شهادة رجل من خارج عالم الإسلام، ولهذا أهميته ولا ريب؛ هذا فضلاً عما تتضمَّنه مصادرنا التاريخية القديمة من وثائق ووقائع ونصوص، كتاريخ الرسل والملوك للطبري، وتاريخ اليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، والبداية والنهاية لابن كثير، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وغيرها مما لا يتسع المجال لاستعراضه أو الإشارة إلى معطياته في هذا المجال.. ونكتفي ـ هاهنا ـ ببعض الشهادات التي قدمها أرنولد كنماذج على تلك السلوكية العالية التي اعتمدها الإسلام في الانتشار العقائدي، وذلك الاحترام الفذ للعقل البشري والحرية الإنسانية..

❁ ❁ ❁

«يمكننا أن نحكم من الصلات الودِّية التي قامت بين المسيحيِّين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام. فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهمَ الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة»[٢].

---

(١) ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ورفاقه، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨١م.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.

«إن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية؛ لا تزال بحاجة إلى شيء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ماَ يسمونه (الاندماج السلمي)، الذي تمَّ بطريقة لم يحسها أحد منهم! ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي، لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين»[١].

«ومن هذه الأمثلة التي قدَّمناها عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرَّة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح»[٢].

«لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في فحل، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون (يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا). . وغلَّق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسُّفهم»[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٩-٧٠. وهو يقتبس عبارة للمستشرق الإيطالي المعروف كيتاني، في كتابه (حوليات الإسلام) جزء ٤، ص ٤. يقول فيها: «لم يضطهد العرب أحداً في السنوات الأولى من أجل الدين، كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون في ظلِّ الإسلام بعد الفتوح الأولى بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة».

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧٣.

«أما ولايات الدولة البيزنطية، التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة؛ بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرَّض لهم أحد، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعاً لإثارة أيِّ احتكاكٍ بين أتباع الديانات المتنافسة.. ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح ـ الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع ـ من هذه العهود التي أعطاها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها، وتعهَّدوا لهم بحماية أرواحهم وممتلكاتهم، وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية»[1].

«وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق، وقيل: إنه بينما كانا في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة، طلب البطريق إلى عمر أن يصلي هناك، ولكنه بعد أن فكَّر اعتذر وهو يقول: إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدعون فيما بعد أنه محلٌّ لعبادة المسلمين»[2].

«ولم يكن الغرض من فرض ضريبة (الجزية) على المسيحيِّين، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدُّونها مع سائر أهل الذمة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدَّم أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة (أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم)، وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: (فإن منعناكم؛ فلنا الجزية، وإلا فلا). ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٧٤.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧٥.

الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر: لما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لصد قوات المسلمين المحتلة، كان لزاماً على المسلمين نتيجة لما حدث أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم. فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب؛ كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردُّوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ماجمع لنا من الجموع. وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم). وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم ـ أي: على الروم ـ فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا»(١).

«ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم، ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني، تمتعوا، وخاصة في المدن، بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة»(٢).. ويضرب أرنولد العديد من الأمثلة على المناصب الكبيرة التي تسنَّمها المسيحيون في ظلال الخلافة الإسلامية عبر العصور(٣): «يكشف تاريخ النساطرة عن نهضة رائعة في الحياة الدينية وعن نواحي نشاطها، منذ أن صاروا رعية للمسلمين(٤). وكان أكاسرة الفرس يدللون هذه الطائفة تارةً،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٧٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨١.

(٣) انظر: المرجع السابق، الصفحات (٨١-٨٣).

(٤) زار راهب دومنيكاني من فلورنسة، بلاد الشرق حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، وتحدث عن روح التسامح التي تمتع بها النساطرة إلى عصره في ظل الحكم الإسلامي، فقال: «قرأت في (التاريخ القديم) مؤلفات للعرب موثوق بها: أن النساطرة أنفسهم كانوا أصدقاء لمحمد وحلفاء له، وأن محمداً نفسه قد أوصى خلفاءه أن يحرصوا

=

ويضطهدونها تارةً أخرى، إذ كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الأكاسرة، بل مرُّوا بحالة أشد من هذه خطورة، وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم؛ بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيِّين.

ولكن الأمن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء، قد مكَّنهم من أن يسيروا قدماً في سبيل أعمالهم التبشيرية في الخارج، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منها إلى مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي.

وفي العصر نفسه تقريباً رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسية، حتى إذا جاء القرن الحادي عشر كانوا قد جذبوا عدداً كبيراً ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار. وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي؛ فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين، إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواءٍ، وكانت فضلاً عن ذلك تصدّهم عن أن يضطهد بعضهم بعضاً.

وفي القرن الخامس أغرى برصوما وهو أسقف نسطوري، ملك الفرس بأن يدبِّر اضطهاداً عنيفاً للكنيسة الأرثوذكسية، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس، وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلاً إلى مبادئهم، ويقال: إن عدداً يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، مع عدد ضخم من العلمانيين، قد ذبحوا في هذا الاضطهاد.

وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس بعد أن غزا هرقل بلاد فارس، وذلك بتحريض أحد اليعاقبة، الذي أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين، ولكن مبادئ التسامح

= على صداقتهم مع النساطرة التي يرعاها العرب أنفسهم حتى ذلك اليوم بشيءٍ من العناية» المرجع السابق، هامش ١، ص ٨٧.

الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيِّين بالعدل والقسطاس.. مثال ذلك: أنه بعد فتح مصر استغل اليعَاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيِّين، بعد أن دلَّل الأرثوذكس على ملكيتهم لها»[١].

«إذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام؛ بعيدة عن التصديق. ومن ثمَّ لم يكن بد من أن نتلمَّس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد»[٢].

«إننا لم نسمع عن أية محاولةٍ مدبرةٍ لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظَّم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابيلا دين الإسلام من إسبانية، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقب عليه متَّبعوه في فرنسة، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترة مدة خمسين وثلاثمئة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسية قد انعزلت انعزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرَّد بقاء هذه الكنائس حتى الآن، ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم»[٣].

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٨٦-٨٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٩٨-٩٩.

«جلب الفتح الإسلامي إلى الأقباط في مصر حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان. وقد تركهم عمرو أحراراً على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، وخلَّصهم بذلك من التدخل المستمر الذي أنُّوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني. ولم يضع عمرو يده على شيءٍ من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب.. وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتداد الأقباط عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين؛ بل لقد تحوَّل كثيرٌ من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذٍ لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة»[1]..

«وممَّا يدل على أن تحول المسيحيِّين إلى الإسلام - في مصر - لم يكن راجعاً إلى الاضطهاد، ماوقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية؛ وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية، تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم، بل ببناء كنائس جديدة، وتخلَّصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال، وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أعفي الرهبان من دفع الجزية، ومنحوا امتيازات معينة»[2].

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٠.

هذه لمحات عن منطقة محدودة فحسب (هي العراق والشام، ومصر إلى حدّ ما) من العالم الذي امتدَّ إليه الإسلام وتعامل معه.. فهنالك بلاد فارس وأواسط آسية، وإفريقية، وإسبانية، وجنوبي أوروبة وشرقيها، والهند والصين، وجنوب شرقي آسيَة مما تحدث عنه أرنولد فأطال الحديث.. ولن تغني الشواهد هنا عن متابعة هذا الكتاب ـ الوثيقة الذي يجيء على يد باحث يحترم (العلم) بالقدر الذي لم نألفه لدى عدد من الغربيِّين في تعاملهم مع عقيدتنا وتاريخنا إلا نادراً..

ومهما يكن من أمر؛ فإن التاريخ البشري شهد، في الطرف الآخر، الكثير من محاولات القسر الفكري تحت تأثير الإغراء أو الإرهاب.. ابتداءً بعصور اليونان والرومان، ثم البيزنطيِّين والفرس، مروراً بعصور الصراع الديني في أوروبة، ومحاكم ديوان التحقيق (La Inquisicion) وانتهاء بالعصر الحديث..

والبحث في الوقائع التاريخية التي تؤكِّد هذا الاتجاه، وتتحدَّث عنه، يطول هو الآخر، ومن ثم سنكتفي بالإشارة إلى (نموذج) واحد فحسب، يحمل أهميته في هذا المجال، هو ما فعلته السلطة والكنيسة الإسبانيتان مع بقايا مسلمي الأندلس بعد سقوط آخر معاقلهم السياسية: غرناطة؛ مما قصَّه علينا بالتفصيل العلمي الموثوق الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه القيم (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصِّرين)[1].. لكي يتبين لنا أن ما يجري اليوم من ممارسات القسر الفكري بالاعتماد على معطيات العلم والتكنولوجيا والتطوُّر المذهل في برامج العمل وخططه، كان يتم في الماضي بأشكال وصيغ أخرى، وإن كانت تقود في كثير من الأحيان إلى النتائج نفسها: تدمير

(١) الطبعة الثانية، مصر، القاهرة ١٩٨٥م، والكتاب يمثل العصر الرابع من: مؤلف عنان المشهور: دولة الإسلام في الأندلس.

الطاقة النفسية للإنسان، وتفريغ عقيدته وقناعاته وأفكاره السابقة، (وملء) عقله ووجدانه بما يراد له لا بما يريد هو أن يكون..

يصف لنا مؤرِّخ إسباني عاش قريباً من عصر المحنة الإسلامية في الأندلس، نيَّات الكنيسة نحو المسلمين في قوله: «إنه منذ استولى فرديناند على غرناطة (٨٩٧هـ = ١٤٩٢م) كان الأحبار يطلبون إليه بإلحاح، أن يعمل على سحق طائفة محمد في إسبانية، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء: إما التنصير، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب، وأنه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم، بل فيه إنقاذ لأرواحهم، وحفظ لسلام المملكة، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى، أو يحافظوا على ولائهم للملوك، ما بقوا على الإسلام، وهو يحثُّهم على مقت النصارى أعداء دينهم»[1].

ولم تكن هذه السياسة في الواقع بعيدة عما يخالج ملكي إسبانية، فرديناند الخامس وزوجه الملكة المتعصِّبة إيسابيلا الكاثوليكية، من شعور نحو المسلمين، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين بتأمينهم في أنفسهم وأموالهم، واحترام دينهم وشعائرهم، لتحول دون تحقيق أغراض السياسة القومية. ذلك أن فرديناند لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلاً لتحقيق مآربه، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع..

وأخذت سياسة الإرهاب تجرف في طريقها كل شيء، ونشط ديوان التحقيق، أو الديوان المقدس، يدعمه وحي الكنيسة وتأييد العرش إلى مزاولة قضائه المدمر.. وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحةً نحو المسلمين، وكانت الكنيسة

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٦-٢٩٧.

تحاول خلال ذلك أن تعمل لتحقيق غايتها؛ أعني: تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع، ومختلف وسائل التأثير المادية، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر، فجنحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة، وأذعنت السياسة الإسبانية لوحي الكنيسة، ولم تذكر ما قطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم، وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران هما الكردينال خمنيس مطران طليطلة، ورأس الكنيسة الإسبانية، والدون ديجاديسا المحقق العام بديوان التحقيق... فأغلقت المساجد، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم، فانتهكت عقائدهم وشريعتهم...

واستدعي الكردينال خمنيس إلى غرناطة ليعمل على مهمة تحقيق تنصير المسلمين، فوفد عليها في شهر تموز سنة ١٤٩٩م (٩٠٥هـ)، ودعا أسقفها الدون تالافيرا إلى اتخاذ وسائل فعَّالة لتنصير المسلمين.. وتمركزت حركة التنصير في غرناطة بالأخص في حي البيازين؛ حيث حوِّل مسجده في الحال إلى كنيسة سميت باسم (سان سلفادور)، واحتج بعض أكابر المسلمين على هذه الأعمال دون جدوى.. ولم يقف الكردينال خمنيس عند تنظيم هذه الحركة الإرهابية التي انتهت بتوقيع التنصير المغصوب على عشرات الألوف من المسلمين، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربري شائن؛ هو أنه أمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها، ونظمت أكداساً هائلة في ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة، وأضرمت النيران فيها جميعاً.. وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجي عشرات ألوف من الكتب العربية هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإسلامي في الأندلس[1].

وما حدث في غرناطة حدث في باقي البلاد والنواحي الأخرى، فنصَّر أهل البشرات والمرية وبسطة ووادي أش في العام التالي، ١٥٠٠م، وعم

(١) عنان، المرجع السابق، ص ٢٩٧-٣٠٠.

التنصير سائر أنحاء مملكة غرناطة، على أن ذلك لم يقع دون ثورات وحركات مقاومة قدَّم فيها المسلمون صوراً فذة للبطولة والفدائية في سبيل العقيدة. . ولكنهم كانوا عزّلاً، وكانت جنود النصرانية صارمةً شديدةَ الوطأة فمزَّقتهم بلا رأفة، وكثر بينهم القتل، وسبيت نساؤهم، وقضي بالموت على مناطق بأسرها، وحوّل أطفالها إلى النصرانية[1]. .

وفي العشرين من حزيران عام ١٥٠١م، وبتأثير من الكنيسة، أصدر فرديناند وإيسابيلا أمراً ملكياً خلاصته: (إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة) فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم، أو بأولئك الذين نُصِّروا لئلَّا يفسدوا إيمانهم، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال. . .

ومضت السياسة الإسبانية في اضطهادها المسلمين بمختلف الوسائل. وكان من الإجراءات الشاذة التي اتخذت في هذا السبيل تشريع أصدره فرديناند بإلزام المسلمين في المدن بالسكنى في أحياء خاصةٍ بهم، على نحو ما كان متبعاً نحو اليهود في العصور الوسطى. ونفذ هذا التشريع في غرناطة عقب حركة التنصير الشامل. . . وصدر في نفس الوقت (في أيلول سنة ١٥٠١م) قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سرّاً، وينصُّ على معاقبة المخالفين لأول مرَّة بالحبس والمصادرة، ثم بالموت بعد ذلك. . .

وكانت السياسة الإسبانية تخشى احتشاد الموريسكيين (المسلمين المتنصِّرين) وتجمعاتهم في مملكة غرناطة، ولهذا صدر في شباط سنة ١٥١٥م مرسوم ملكي أعلن في طليطلة، وفيه يحرَّم بتاتاً على المسلمين المتنصِّرين حديثاً، أن يخترقوا أراضي مملكة غرناطة، ويعاقب المخالفون

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠٣. وانظر بالتفصيل الصفحات: ٣٠٤-٣٠٧.

بالموت والمصادرة. ونص هذا المرسوم أيضاً بأنه يحرم بتاتاً على المتنصِّرين حديثاً في مملكة غرناطة، أو في جهة أخرى من المملكة، أن يبيعوا أملاكهم لأي شخص دون ترخيص سابق، ومن فعل عوقب بالموت والمصادرة، وذلك لأنه تبين، كما ورد في المرسوم، أن كثيراً من المسلمين المتنصرين يبيعون أملاكهم، ويحصلون أثمانها، ثم يعبُرون إلى المغرب، وهنالك يعودون إلى الإسلام[١].

ويصف أحد المؤرخين المسلمين مأساة مسلمي الأندلس بهذه الكلمات المؤثرة «ثم بعد ذلك دعاهم (أي: ملك قشتالة) إلى التنصير، وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمئة، فدخلوا في دينهم كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: (لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله) إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس. وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم.. ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب، فيالها من فجيعةٍ ما أمَرَّها، ومصيبةٍ ما أعظمها..»[٢].

ويصف المقري كيف أن من أظهر التنصير من المسلمين كان لا يستطيع أن يمارس عبادته الإسلامية إلَّا خُفية.. وكيف «شدَّد عليهم النصارى في

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠٨-٣١٠.

(٢) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، الصفحات: ٥٤-٥٦ (تحقيق ميللر، غوتنغن، سنة ١٨٦٣م).

البحث، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد...»[١].

ونريد الآن أن نعرف شيئاً عن إجراءات ديوان التحقيق، تلك الأداة الرهيبة التي استخدمت لإبادة المسلمين واستئصال شأفة الإسلام في الساحة الأندلسية.

تبدأ قضايا الديوان، أو محاكماته الفرعية، بالتبليغ أو ما يقوم مقامه، كورود عبارة في قضية منظورة تلقي شبهة على أحد ما، ولا فرق بين أن يكون التبليغ من شخص معين أو يكون غفلاً. ففي الحالة الأولى يدعى المبلِّغ ويذكر أقواله وشهوده، ويعتبر ذلك تحقيقاً تمهيدياً، كذلك يمكن التبليغ بواسطة (الاعتراف) الذي يتلقَّاه القسس، ولهم أن يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الاشتباه في العقائد، وذلك بالرغم مما يقتضيه الاعتراف من الكتمان، ويقسم المبلغون الشهود يميناً بالكتمان، ولا توضح لهم الوقائع التي يسألون عنها، بل يسألون بصفة عامة عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا شيئاً يناقض الدين الكاثوليكي أو حقوق الديوان. ويقوم الديوان في الوقت نفسه بإجراء التحريات السرية المحلية عن المبلَّغ ضده. ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدي على (الأحبار المقررين) ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكباً لجريمة الكفر، أو تلقى عليه فقط شبهة ارتكابها. وقرارهم يحدد الطريقة التي تتبع في سير القضية. وكان معظم أولئك المقرِّرين من القسس الجهلاء المتعصِّبين، ومن ثم فقد كانت أخلاقهم وآراؤهم، بل ذمتهم وشرفهم، مثاراً للريب، وكان رأيهم الإدانة دائماً إلا في أحوال نادرة.

«وعلى أثر صدور هذا التقرير، يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٢/ ٦١٦، ٦١٧ (طبعة بولاق).

ضده، وزجّه إلى سجن الديوان السري. وكانت سجون الديوان المخصّصة لاعتقال المتهمين بالكفر أو الزيغ، وهي المعروفة بالسجون السرية، غاية في الشناعة، تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب، عميقة مظلمة رطبة تغصُّ بالحشرات والجرذان، ويصَفّد المتهمون بالأغلال. ويقول لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني: إن أفظع ما في أمر هذه السجون هو أن من يزجُّ إليها، يسقط في الحال في نظر الرأي العام، وتلحقه وصمة لا تلحقه من أي سجن آخر مدني أو ديني، وفيها يسقط في غمار حزن لا يوصف، وعزلة عميقة دائمة، ولا يعرف إلى أي مدى وصلت قضيته، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه. ويقول الدكتور لي: كانت أملاك السجين كلها تصادر وتصفى على الفور، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنتهي محاكمته، وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره، وتدفع نفقات سجنه من أملاكه المصفاة وكثيراً ما تستغرقه المحاكمة.

ولا يخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات في ثلاثة أيام، تعرف بجلسات الرأي أو الإنذار، وفيها يطلب إليه أن يقرِّر الحقيقة ويوعد بالرأفة إذا قرَّر وفق ما ينسب إليه، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر، لأن (الديوان المقدس) لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته، وهي طريقة غادرة محيِّرة. فإذا اعترف المتهم بما ينسب إليه ولو كان بريئاً، اختصرت الإجراءات وقضي عليه بعقوبة أخف، ولكنه، إذا اعترف بأنه كافرٌ فإنه لا ينجو من عقوبة الموت مهما كانت الوعود التي بذلت له بالرأفة والعفو. فإذا أبى المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث، وضع النائب له قرار الاتهام طبقاً لما ورد في التحقيق من الوقائع، وذلك مهما كانت الأدلة المقدَّمة من الركاكة والضعف. بيد أن أفظع ما يحتويه القرار هو إحالة المتهم على التعذيب،

وغالباً ما يطلب النائب هذه الإحالة، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب إليه، لأنه يفترض دائماً أنه أخفى أو كذب في اعترافه. وتصدر المحكمة قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة.. وقد نوّه كثيرٌ من المؤرخين بروعة الإجراءات والوسائل التي كانت تلجأ إليها محاكم التحقيق في توقيع العذاب، ويعلّق عليها (دون لورنتي) بقوله: (لست أقف لأصف ضروب التعذيب التي كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين. ولكني أصرح أن أحداً منهم لا يمكن أن يتهم بالمبالغة فيما روى. ولقد تلوت كثيراً من القضايا فارتجفت لها اشمئزازاً وروعاً، ولم أرَ في المحققين الذين التجؤوا إلى تلك الوسيلة إلا رجالاً بلغ جمودهم حدّ الوحشية)..

وكان معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى، تستعمل في محاكم التحقيق، ومنها تعذيب الماء، وهو عبارة عن توثيق المتهم فوق أداة تشبه السلَّم، وربط ساقيه وذراعيه إليها مع خفض رأسه إلى أسفل، ثم توضع في فمه من زلفة جرعات كبيرة، وهو يكاد يختنق، وقد يصل ما يتجرَّعه إلى عدَّة لترات. وتعذيب (الجاروكا) وهو عبارة عن ربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه، ورفعه وخفضه معلقاً، سواءً بمفرده أو مع أثقال تربط معه. وتعذيب الأسياخ المحميَّة للقدم، والقوالب المحمية للبطن والعجز، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة.

ولم يك ثمَّة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه.. ولا يحضر التعذيب سوى الجلَّاد، والأحبار المحققين، والطبيب إذا اقتضى الأمر، ولا يُخْطَرُ المتهم بأسباب إحالته على التعذيب، ولا يسأل ليقرِّر وقائع معينة، بل يعذب ليقرر ما شاء.. وقد يأمر الطبيب بوقف التعذيب إذا رأى حياة المتهم في خطر، ولكنَّ التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جفَّ دمه. فإذا

اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحاً، بمعنى أنه يتضمَّن عنصر التوبة، كف عن تعذيبه، وإذا استطاع المتهم احتمال العذاب وأصر على الإنكار، لم يفده ذلك شيئاً، لأن القضاة يتخذون غالباً من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلة على الإدانة، ويَحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار. ويجب أن يؤيد المعترف ما قاله وقت التعذيب، باعتراف حرٍّ يقرره في اليوم التالي، وذلك حتى يؤكد صحة الاعتراف، فإذا أنكر أو غيَّر شيئاً أعيد إلى التعذيب.

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ممزقاً دامياً إلى قاعة الجلسة ليجيب عن التهم التي توجَّه إليه لأول مرَّة.. وبعد المرافعة والاستجواب تحال القضية على الأحبار المقرِّرين ليُبدوا فيها رأيهم تمهيداً للحكم النهائي، وقلَّما كان قرار الأحبار يختلف عن قرارهم الأول.. فإذا ما قضي عليه ـ أخيراً ـ بالإدانة؛ فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلَّا عند التنفيذ، وهو إجراء من أشنع الإجراءات الجنائية التي عرفت، فيؤخذ المتهم من السجن دون أن يدري مصيره الحقيقي ويجوز الرسوم الدينية التي تسبق التنفيذ.. ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ، وهنالك يتلى عليه الحكم لأول مرة، وقد يكون في حالة التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة، أو بالإعدام حرقاً في حالة (الكفر الصريح).. وكانت أحكام الإعدام هي الغالبة في عصور الديوان الأولى، وكان التنفيذ يقع في ساحات المدن الكبيرة، وفي احتفال رسمي يشهده الأحبار والكبراء بأثوابهم الرسمية، وقد يشهده الملك. وكان يقع على الأغلب جملة؛ فينفذ حكم الحرق في عدد من المحكوم عليهم قد يبلغ العشرات أحياناً، وينتظم الضحايا في موكب كان يعد على شناعته من الحفلات العامة التي تهرع لشهودها جموع الشعب. ومما يذكر في ذلك أن فرديناند الكاثوليكي كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة، وكان يسره أن يشهد حفلات الإحراق، وكان يمتدح الأحبار المحقِّقين كلما نظمت حفلة منها.

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئاً يبث اليأس في النفوس.. وقد يموت المتهم في سجنه قبل أن يصدر الحكم في قضيته.. وكان أثر الأحكام الصادرة بالإدانة يتعدى المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضى بحرمانهم من تولي الوظائف العامة، وامتهان بعض المهن الخاصة، وبذا يؤخذ الأبرياء بذنب المحكوم عليه»[١].

«وكان أعضاء محاكم التحقيق يتمتَّعون بحصانة خارقة، وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة.. وكان من جراء هذه السلطة المطلقة، وهذا التحلل من كل مسؤولية أن شاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة، والقبض على الأبرياء دون حرج، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي؛ لا يتورَّعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد للاختلاس، وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد، هذا بينما يموت أصحاب هذه الأموال الطائلة في السجن جوعاً.. لا بل إن بعض المحققين كانوا يمارسون اغتصاب البنات والزوجات دون أن تمسهم يد أو ينالهم عقاب...»[٢].

❁ ❁ ❁

ذلك ما فعلناه عندما قدنا العالم.. وهذا ما فعله أعداؤنا عندما أتيح لهم أن يتسلَّموا (السلطة)..

في الأولى كان (الدين الحق) قد وضع العقَل البشري وقيم الاختيار والحرية في أعز مكان.. وفي الثانية داسها (أدعياء الدين) بالأقدام..

(١) انظر عنان: المرجع السابق، ص ٣١٦-٣٢١ (وكذلك المصادر الإسبانية التي اعتمد عليها، والمثبتة في هوامش الصفحات المذكورة).

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٢.

إن الفارق بين الصفحتين هو الفارق بين الإنسان المتحضِّر، المهذب، الذي يبعثه الدين القيم.. وبين الآدمي المتخلِّف، المتوحش، الذي يرتكس به التعصب الأعمى..

ورغم هزيمتنا وانتصارهم؛ فإن (شرف الإنسان) ما كان يمكن أن يكون لولا القيم المتألقة التي صنعها الإسلام..

ولنتصور كيف سيكون التاريخ البشري لو تسلمت قيادته يوماً مؤسسات كمحاكم التحقيق.. أفيكون فيه للإنسان الحر، الكريم، أيّما مكان في العالم؟!

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

فليس ثمَّة طريق ثالث.. إما الله والنور.. وإما الطاغوت والظلمات.. إما الإيمان والحرية.. وإما الكفر والعبودية..

فإن لم نؤمن بالله.. ونكفر بالطاغوت.. بالرفض.. وبالكلمة.. وبالحركة.. فإن (محاكم التحقيق) تنتظرنا..

تأخذ بزمام السلطة والقيادة في العالم..

وترجع بنا إلى الظلمات..



(١) البقرة: ٢٥٦-٢٥٧.

حين يتساقط الوضعيون

١

إن نسبيَّة الفكر الغربي، وقلقه، وتأرجحه، وعدم استناده على أرضية ثابتة من اليقين والعلم، تجعل صنماً فكرياً من صنميات أوروبة.

وواضع أسس الفلسفة الوضعية: (أوغست كونت) يتخذ، بسبب من دوافعه الذاتية التي لا تقوم على أي أساس موضوعي، موقفين متناقضين من المرأة!

ففي رسالة بعنوان: «رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي» يبعث بها أوغست كونت إلى محبوبته (كلوتيلد دي فو)، يغيِّر رأيه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييراً تاماً!! «فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه (ستورات ميل)، فيرى أنه ليس في المرأة أملٌ ولا خير، أما الآن فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه»[1].

والسبب في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض إلى النقيض هو أنه في الأولى كان يحب امرأة قبلت الزواج منه، ولكنها خدعته فدفعته إلى محاولة الانتحار والالتحاق بمستشفى المجانين حيناً من الدهر، وفي الثانية أحب فتاة لم يتح له الزواج بها، لكنها منحته نفسها وأحبته حباً صادقاً!!

(١) طه حسين: ألوان، ص ١٥٤ (دار المعارف، القاهرة - ١٩٥٨م).

ونقارن هذا العبث بالموقف الديني من المرأة.. الموقف الثابت الواضح المنبثق عن علم إلٰهي محيط بتكوين هذا الجنس وخصائصه ووظائفه المناسبة، فنراه شاسعاً هائلاً، ونرى الذين يتجاوزونه صوب الأحكام النسبية المتغيرة كأحكام (كونت) إياها ويريدون أن يتعاملوا على أساسها المتقلب مع المرأة، يستحقون الرثاء والازدراء!

وإذا كان موقف (كونت) مؤسس واحدة من أشد الفلسفات أهمية وانتشاراً في أوروبة يغير رأيه بسبب دوافع ذاتية صرفة، وفي واحدة من المسائل الأساسية في الحياة البشرية: المرأة، فكيف يرجى لفلسفته أن تمنح اليقين لتلامذتها والمعجبين بها، بل كيف نفسِّر تحوُّلها، وغيرها كثير من الفلسفات البشرية العاجزة إلى مايشبه الدين الذي ينحني الغربيون لمسلماته ويعتقدون أنه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ ألا ينسحب الأمر على معظم الفلسفات والعقائد الوضعية إن لم نجازف فنقل: كلها؟!

٢

إليكم مثلاً آخر: (سيسرون) الخطيب والأديب والسياسي الروماني المعروف (الذي قتل سنة ٤٣ ق.م).. كان الأوروبيون ينظرون إليه عبر قرون وأجيال متطاولة، وحتى العصر الحديث، نظرة إعجاب يبلغ حد التقديس لشخصية تكاد تتميَّز بالكمال؛ فلا يعتورها أي نقص على الإطلاق!

«لقد نشؤوا ـ كما يقول طه حسين ـ على أن سيسرون هو الصورة الصادقة للجد الذي ليس بعده جد، والحزم الذي ليس بعده حزم، والارتفاع عن صغائر الأمور، والتنزه عما يشين رجل الصدق، وهو الذي تولى منصب القضاء الأعلى في الجمهورية، فكان أنزه القضاة وأعفَّهم، وتولى رياسة

الجمهورية فكان حازماً صارماً.. سديد الرأي.. وتولى الحكم في أحد الأقاليم فكان مثالاً ممتازاً للنزاهة والعدل والصرامة.. واشتغل بالمحاماة فكان أفصح المحامين لساناً، وأمضاهم حجة، وأرحمهم للضعيف، وأرأفهم بالمظلوم.. وقد قاوم الدكتاتورية والطغيان والاستبداد بيده ولسانه وقلبه، ولقي حتفه في هذه المقاومة حين ائتلف الطاغيتان، أنطونيوس وأوكتافيوس، وهدرت بهذا الائتلاف دماء كثيرٍ من أعلام الجمهورية»[١].

ولكن الأستاذ (جيروم كاركوبينو) عضو المجمع العلمي الفرنسي ومدير مدرسة المعلمين العليا في باريس ـ سابقاً ـ يعرض على الفرنسيين والأوروبيين عموماً، في كتاب كبير ذي مجلدين، عمل على تأليفه السنين الطوال، وتميز بدقة البحث وعمق الاستقصاء: صورة عن سيسرون تختلف عما ألفه المعجبون!

فإذا بالرجل يبدو على حقيقته: «سياسياً متقلباً مسرفاً في التقلُّب، أنفق حياته كلها ملتمساً لمنفعته الخاصة القريبة الحقيرة، مخادعاً للناس عن نفسه وعن آرائه وعن سيرته، فهو يزعم أنه أنقذ الجمهورية حين كان رئيساً لها من خطر الثورة، مع أن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه كان صديقاً لكاتلينا زعيم الثورة، ولم يهاجمه إلَّا حين عجز عن أن ينتفع به. وهو يزعم أنه كان نصيراً للنظام الجمهوري حين ظهر يوليوس قيصر، ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه تقرَّب إلى قيصر حتى ظفر منه بالعطف والعفو والأمن، وظلَّ يتملَّقه ما استقامت له الأمور، فلما قتل شمت بقتله وابتهج لموته، وظاهر قاتليه. وهو يزعم أنه نصير للنظام الجمهوري بعد مقتل قيصر، ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه تملَّق أنطونيوس ما وسعه التملُّق، وتملَّق

(١) المرجع السابق، ص ٢٦٧.

أوكتافيوس ما وجد إلى تملُّقه سبيلاً، فإذا كان الرجلان قد قتلاه لأنه تنكَّر لهما قبل ائتلافهما؛ فهما لم يزيدا على أن قتلا خصماً سياسياً كاد لهما وألَّب عليهما، بعد أن كان لهما صديقاً يبتغي إلى مودتهما الوسائل. فحبه للنظام الجمهوري كذب إذن؛ لأنه لا يحب إلا نفسه ولم يبتغ إلا منفعته. وأخلاقه لم تكن ذات خطر؛ فقد كان شرهاً إلى المال، تعترف عليه كتبه بأنه ارتشى من قيصر أولاً، ومن غير قيصر ثانياً، وبأنه ملك في روما وفي خارج روما ثماني عشرة داراً من تلك الدور الفخمة التي كان الأغنياء الرومانيون يملكونها. وهو يطلِّق امرأته التي عاشت معه خمسة وثلاثين عاماً.. لسبب واحد؛ وهو أن امرأته لم تمكنه من ثروتها حين احتاج إلى هذه الثروة.. وهو يدفع ابنته إلى الزواج والطلاق ثلاث مرات عشقاً للمال وحده حتى تموت البائسة حزناً.. ثم هو يزعم أنه كان رجلاً شريفاً في سيرته السياسية وفي كل ما يتصل بالانتخاب خاصة، ولكن كتبه تشهد عليه بأن سياسته لم تكن إلَّا مداورة ومصانعة، وأنه كان يصطنع من إفساد الانتخاب برشوة الناخبين وأخذ أصواتهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة أخرى، ما كان يصطنعه غيره من المرشحين لمناصب الدولة... إلخ»[1].

وجدير بالذكر أن مؤلف الكتاب جيروم كاركوبينو إنما اعتمد في كشف القناع عن الوجه الحقيقي لسيسرون على رسائل سيسرون نفسه، إلى صديق عمره الزعيم ورجل المال والمثقف الروماني: أتيكوس! ومن الذي قام بنشر هذه الرسائل الشخصية (الخاصة جداً) ففضح بذلك صديقه العزيز وأظهره على حقيقته؟

إنه أتيكوس نفسه!

لماذا؟

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٥-٣٧٦.

٣

الجواب يكمن في (فلسفة) أخرى راجت في أوروبا عبر العصور، ووجدت لها جيشا من الأتباع والعبّاد والمعجبين الذين اتخذوها من دون العقائد والأديان، عقيدةً وديناً!

الأبيقورية!

كيف تبيح هذه الفلسفة، أو العقيدة الوضعية، أن يخون صديق صديقه، وأن يعريه أمام الأجيال بإطلاعهم على رسائل كان الرجل يريدها سراً خالصاً بينه وبين صديقه؟

لنرجع إلى بداية القصة علَّنا نعرف الأسباب..

«كان أتيكوس قد أحب مذهب أبيقور، واتخذه لنفسه ديناً، وتأثَّرت به حياته العقلية، كما تأثَّرت به سيرته اليومية أشد التأثر وأقواه. والقراء يعلمون أن أخص ما يمتاز به مذهب أبيقور من الناحية الخلقية، هو أن يجعل اللذة غاية الغايات للإنسان، ويرى أن هذه اللذة لا تخلص ولا تستقيم لطلابها إلا إذا برئت من الألم، فلم تعقبه ولم تورط فيه.. ومذهب أبيقور يمتاز كذلك بأنه حرر الإنسان من خوف الموت، وما يمكن أن يكون بعد الموت. فالآلهة لا يحفلون بالإنسان ولا يسألونه عن عمله ولا يجزونه بالخير خيراً ولا بالشر شراً، وإنما الإنسان مسؤول عن نفسه أمام نفسه أثناء الحياة، فإذا أدركه الموت فقد عاد إلى العدم الذي خرج منه حين دخل الحياة. وإذن فليس للإنسان إلا أن يفكر في حياته هذه التي يحياها، يلتمس فيها لنفسه الخير والمنفعة، ويصرف فيها عن نفسه الشر والمضرة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. والصداقة نفسها عرض من أعراض هذه الحياة، لا تلتمس لنفسها، وإنما تلتمس لما تتيح للإنسان من لذة ومنفعة، وهو خليق أن

يجتنبها ويتخلَّص منها إن عرَّضته لشرٍّ أو ضر، وهو خليق ألَّا يحفل بها ولا يلتفت إليها إن لم تغن عنه شيئاً»[١].

٤

صورة بشعة حقاً للعلاقات البشرية، وهي تتميَّع بهذا الشكل المفجع، وتفتقد أيَّة قيمةٍ ثابتةٍ تستند إليها وتمنحها الديمومة والاستمرار..

والأنكى من هذا أن تفكُّكاً رهيباً كهذا يصيب وجه الحياة البشرية بالدمامل والبثور، ويقتل وجهها المضيء الجميل، إنما يجد تبريره العقلي في فلسفة ما من الفلسفات البشرية المعوجَّة القائمة على الميل والظنِّ والهوى. وما دام أن الفكر الوضعي لا يمكن ـ بحال ـ أن يتحرر من الميول والظنون والأهواء، فإنه سيظل يلد فلسفاتٍ قاتمة كهذه، سيئةٍ إلى الحد الذي يقف بصراحة، بل بوقاحة، أمام تفرُّد الحياة البشرية، ونقائها، وسعيها الجاد صوب الأحسن والأرقى، ويرغمها على أن تمارس العلاقات بصيغها اللاإنسانية كما يحدث في المجتمعات الحشرية سواءً بسواءٍ:.

وهكذا فإن الفلسفة البراغماتية (الذرائعية) التي انبجست في أمريكة؛ ليست شيئاً جديداً على خارطة الفكر الوضعي، كما أن (الوضعية) و(الفرويدية) و(الدارونية) وحتى (الماركسيَّة) من قبلها؛ ليست شيئاً جديداً.

٥

إن (أبيقور) قاعد هناك في خلايا المخ وحجيرات الدماغ، وما لم يتحرَّر العقل الأوروبي، بالدين الحق وحده، من أسر الميول والظنون والأهواء،

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٣.

فإن أبيقور سيظهر ألف مرة أخرى؛ مرتدياً حيناً ثياب عالم نفس تحليلي كفرويد، أو عالم حياة كداروين، أو اجتماع واقتصاد ككونت وماركس..

وسيظل الزوج يخدع بزوجته، والزوجة تخون زوجها، والصديق الحميم يغدر بصديقه، ما دام أن هؤلاء جميعاً يجدون في (الفلسفة) إسناداً لأفعالهم القبيحة تلك، وتبريراً لممارساتهم الموجهة ضد (الإنسان) ابتداءً..

٦

فما الذي دفع أتيكوس إلى خيانة صديقه سيسرون، والكشف عن رسائله الشخصية التي مزَّقت القناع عن وجهه، ومرَّغت قدسيته في الوحل، وأعطت للإمبراطور الروماني أوكتافيوس المبرر لقتله؟

إنها الأبيقورية.. كيف؟ لنقرأ: «كانت الصداقة التي ادخرها أتيكوس لخليله الوفي الحميم سيسرون صداقة قوية متينة، ماجلبت له نفعاً ولذةً، وكان سيسرون مصدراً للَّذة والنفع جميعاً..»[1].

فلما استأثر أوكتافيوس مع أنطونيوس بالسلطان الروماني، توثَّقتِ الصلات بين عظيم السياسة الرومانية، وأتيكوس عظيم المال الروماني، وتجاوز الأمر حدود الصداقة إلى المصاهرة، وازدادت الوشائج قوة، ووجد أتيكوس نفسه يندفع إلى نشر الرسائل الخاصة التي كتبها إليه سيسرون، فيسقط الأقنعة عن وجه صديقه القديم في سبيل أن يمنح صديقه الجديد المبرر لمقتل سيسرون ولما يجف بعد دمه!

كما أنه يمنح ـ لحسن الحظ ـ باحثاً مدققاً مثل كاركوبينو لكي يعتمد على هذه الرسائل في كتابه عن سيسرون، فيسقط بذلك واحداً من الأصنام الكثيرة التي استعبدت العقل الأوروبي طوال قرون..

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٣.

٧

وهكذا. . فإذا خان زوج زوجه، وخدع صديق صديقه؛ فإن الجواب عند أبيقور، وإذا غدر شعب بشعب، وذبحت طبقة طبقة أخرى؛ كان الجواب عند هيغل وماركس، وإذا تجاوز إنسان ما حدود المحرمات ففسق بها، وجد في فرويد محامياً قديراً على تبرئة ساحته.

عشرات بل مئات من الآلهة والأرباب المزيفة، ومن الأصنام المبعثرة على قارعة كل طريق، كانت ـ وستظل ـ تحكم عقل الإنسان وتتحكم في وجدانه وروحه في كل زمان ومكان.

ولن يتحرَّر الإنسان ـ بحق ـ إلا بالدين القادم من عند الله، العادل الذي لايظلم مثقال ذرة، المهيمن الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الخبير الذي يعلم من خلق وهو بكل خلقٍ عليم.

وليس ثمة بعد الدين الحق، إلا ما قاله القرآن الكريم بكلماته المعجزة، فاختصر به مأساة الحياة البشرية، ومنحها ـ في الوقت نفسه ـ الطريق الذي يخرج بها إلى برِّ الأمان الوضيء، النظيف، السعيد:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[١].

وصدق الله العظيم.




(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.

حول الاجتهاد
الضرورات والحوافز
ووسائل التحقيق

تطرح هذه الصفحات الموجزة (التي قدمت إلى الملتقى الإسلامي السابع عشر في الجزائر ـ تموز ١٩٨٣م) بعض الملاحظات التي قد يبدو الكثير منها من قبيل البديهيات، ولكنها من النوع الذي قد تؤدي شدة ظهوره إلى خفائه، ومن ثم تجيء الحاجة إلى التأكيد عليها، أو إعادة عرضها، لتكون في دائرة الضوء. وهي ملاحظات تطرح نفسها بقدر من التركيز والتجريد الضروريين في مناسبة كهذه، فما هي إلا محاولة لرسم هيكل عمل وعرض مبرراته، وليست بحثاً أكاديمياً يستلزم التهميش والتنصيص والاستشهاد.

حتميَّة الاجتهاد :

إن الاجتهاد جزء أصيل من الالتزام.. أو هكذا يجب أن يكون.. فالمسلم ـ فرداً وجماعة ـ لا يكفيه أن يصلِّي ويصوم ويزكِّي.. ولا يكفيه أن ينفذ مقولات عقيدته وشريعته الإسلاميتين في واقع حياته اليومي.. لا يكفيه أن يثور ويقاتل ويستشهد.. هذه كلها جوانب مِن التزامه بالعقيدة التي آثر الانتماء إليها.. ولكن ثمَّة ما لا يقلُّ عنها أهمية، وإن كان من قبيل (فرض الكفاية) الذي قد تتحمَّل تنفيذه هذه الجماعة أو تلك من المسلمين: حمل المعطيات الإسلامية بالفعل الاجتهادي، إلى آفاق الزمان والمكان.. تحكيمها في صيرورة الحركة التاريخية.. وضعها في مركز الشاهد على كل

صغيرة وكبيرة.. تمكينها من ممارسة إلزامها الدائم في كل تجربةٍ وكلِّ مرحلةٍ.. جعل (الإسلامية) الحَكَمَ الهادي، والموجِّه والدليل الذي يعلم ويرشد، بل يبني ويصوغ بالمادة الإسلامية الأصيلة كل ما يقوم على ساحة الحياة من عمارات ومؤسساتَ، وكل ما يمارس فيها من أنشطة وفاعليات..

حتى مدننا وشوارعنا ودورنا وأماكن ترفيهنا؛ يتوجب أن (نجتهد) في أن تكون امتداداً لرؤيتنا الإسلامية.. لفكرنا ووجداننا الإيماني، وذوقنا الذي يميل دائماً إلى أن يربط المنظور بالغيب، والتراب بالحركة، والأرض بالسماء..

وإذا كانت المنائر الممتدة إلى السماء إشارةً فذَّةً إلى قدرة الفنان المسلم على ابتكار المعمار الذي ينبثق من تصوره، ويقوم على أرضية إيمانه وفكره.. فإن حياتنا المعاصرة كلها يتوجَّب أن تنبثق فيها (الإشارات) التي تجتهد أن تحمل دلالتها على كل ما هو إسلامي، وإن يتغلغل الالتزام الديني في سداها ولحمتها، ويكون نولها الذي يمنح نسيجها هذا الشكل أو ذاك..

وكما أن أيَّ مهندسٍ أو طبيبٍ لا يستطيع أن يستقلَّ بعمله إلا بعد استكمال أدوات العمل ومهارات التخصُّص وخبراتهما، وكما أنه ليس لرجل اعتيادي أو مريض إلَّا أنَّ يستشيرهما بصدد بناء بيتٍ أو علاج مرضٍ.. كذلك موقف «المسلم» إزاء المسائل الفقهية والقضايا التشريعية.

إنه ليس تقليداً ذلك الذي يمارسه المسلم «المسؤول» في مسائل حياته جميعاً، وهو يرجع إلى معطيات أبي حنيفة، أو الشافعي، أو مالك، أو ابن حنبل، أو غيرهم. وليس تقليداً ذلك الذي يعمله المسلم وهو يستفتي، في أية مشكلة تعرض له، هذا الفقيه أو العالم، أو ذاك.

ليس تقليداً ولكنه شعور بالمسؤولية، وتقدير لموقع الإنسان في خارطة المجتمع، واحترام ملزم لشريعة الله.. فليس في مقدور أي مسلم عادي،

قبل أن يستكمل أدوات التعامل مع الله، ويتمكَّن من خبرات الاجتهاد، ويحيط علماً بمقاييس الاستنباط والمناظرة والتفريع، أن يشترع على هواه، وأن يصدر الأحكام كما يشتهي، وأن يفتي لنفسه وللناس بما يرتئيه.

ولو جاز لكل إنسان أن يمارس مهنة الطب أو الهندسة دون أن يدرس شيئاً عنهما، بل دون أن يستكمل سائر ضرورات التخصُّص في حقولهما المختلفة، لجاز للمسلم العادي أن يجتهد في أمور دينه دون أن يلزم نفسه بالرجوع إلى أحد الأساتذة أو الشيوخ المتخصِّصين في مسائل الاجتهاد والتشريع، أولئك الذين أفنوا أعمارهم وهم يضربون في بحر الضرورات العلمية التي تفرضها مهمة «الاجتهاد» الشاقة العسيرة، على كل الراغبين في اقتحام خضمِّها العميق.

إن الدور الكبيرة التي يبنيها أناس لا خبرة لهم بمسائل الهندسة المدنية ستنهار على رؤوس أصحابها يوماً.. والأمراض الخطيرة التي يعالجها رجال لا يعرفون عن الطب شيئاً ستؤول بالذين يعانون منها إلى الدمار.. والموت.. وكذلك تخرج الشريعة عن أهدافها، وتنزع عنها ملامحها، وتنشق عن شخصيتها وتميُّزها، عندما تغدو لعبة ميسورة في أيدي كل الناس، يعملون فيها ـ على هواهم ـ بمشارطهم كي يستخرجوا منها حلاً لمشكلة عويصة، أو فتوى لوضع اجتماعي معقَّد، وما أكثر المشاكل والأوضاع المستجدة في عالم لا يكف عن الحركة والتمخُّض.

إن ثمة نوعين من الرجال يدعواننا إلى أن نتخِذ هذا الموقف من شريعة الإسلام.. هذا التعامل المجاني السهل، الرخيص، مع منهاج الله.. ساذج أو خبيث..

ساذج يتصور أن إخراج الإسلام عن عزلته المعاصرة لا يتم إلا بتحويل كل المسلمين إلى مجتهدين، وتوزيع شهادات التخصُّص عليهم، دون أن

يدرك أنَّ «العزلة» ليست في هذا، وإنما في حجب الإسلام عن التعامل مع الحياة الواقعة على كل المستويات في عالمنا الراهن. «التعامل» الذي هو المحفِّز الطبيعي لمجابهة مشاكل الحياة والمجتمع، بالاجتهاد العلمي، الواقعي، المسؤول..

وخبيث يدرك جيداً أنه متى تحوَّل المسلمون جميعاً إلى «مجتهدين» فقدت الشريعة صلابتها، وقوتها، وتماسكها، وانسلخت عن شخصيتها وملامحها وتميزها، وتفتتت قواعدها شيئاً فشيئاً.. لكي ما تلبث أن تندمج في مجرى الحياة الصاخب، وتتفكك.. وتذوب..

وفي مقابل هذا الرفض المسؤول الذي يتوجَّب أن يكون عليه المسلمون تجاه قضية التشريع، فإن ثمة رفضاً آخر يتحتَّم عليهم: ألا تتوقف حركة الاجتهاد.. أن تظلَّ مدارسها تعمل، ورجالاتها المتخصصون يتخرجون، ومشايخها وأساتذتها يزدادون خبرةً، ومقدرةً، ونشاطاً..

إننا إذا قدِرنا على أن نتصوَّر مجتمعاً حيوياً متطوراً يخلو كليةً من مهندسٍ أو طبيبٍ، ثم يصل إلى أهدافه ببساطة، جاز لنا أن نتصوَّر مجتمعاً إسلامياً حركياً يخلو من مشرِّع أو مجتهدٍ، ثم يصل إلى أهدافه التي علَّمنا إياها الله ورسوله..

إنهما حدَّان قاطعان كالسكين، أن نتحوَّل جميعاً إلى مجتهدين، أو أن لا يكون في مجتمعاتنا المعاصرة أيّ مجتهدٍ على الإطلاق..

إن الاجتهاد هو حماية للإسلام من: التيبُّس والتسيُّب.. وهذه مسألة بديهية.. ولكن ثقل الواقع كاد أن يطمس عليها.. إننا منذ قرون لا نمارس الاجتهاد، فكأننا قد اخترنا أسلوب العمل بصيغة بديهية مضادَّة قد لا يقبلها أي مسلم على الإطلاق: ترك الممارسة تصاب بتصلب الشرايين أو بالرخاوة والتوسع والانفلات.

إن الإسلام حركة باتجاه (التوافق) مع سنن الوجود والعالم، وإيقاع الكون والطبيعة، فأحرى به أن يكون متحقِّقاً بالوفاق مع نفسه. . أي بعبارة أدق: أن يكون كلُّ تعبيرٍ إسلامي، في هذا الجانب أو ذاك من الحياة، وإزاء هذه القضية أو تلك من قضايا الوجود والعالم. . يحمل إيقاعه المتوحِّد مع سائر التعابير عن الجوانب الأخرى من الحياة، والقضايا المتنوعة من الوجود والعالم.

نسيجٌ وحده. . هكذا يجب أن ينزل الفعل الإسلامي المتفرِّد، المتميز، إلى العالم، إيقاع متوحِّد، وتوافق منظور، وتناغم شامل بين كل جزئيات الفعل وأطرافه. . فإن لم يعنِ الفعل الاجتهادي على تحقيق هذا التوحُّد والتوافق والتناغم بين المعطيات والتعابير الإسلامية، وبينها وبين العالم، فمن يتولى هذه المهمة؟! ألا يُخشى أن يؤول الأمر بالممارسة إلى التشتُّت والتصادم والتغاير، وأن تخرج عن إيقاعها المتوحِّد، وتناغمها الموزون إلى النشاز والتبعثر، وتفقد شخصيتها وسماتها المتميِّزة؟

إن الاجتهاد هو، بشكل من الأشكال، تنفيذ لمهمة مزدوجة: الحفاظ على هندسة الإسلام نفسه، من جهة، وتحقيق انطباقه الباهر على الواقع التاريخي ـ من جهة أخرى ـ؛ أي: على بعدي الزمان والمكان. .

ولن يكون ذلك إلا لصالح (الإنسان) ومكانته المتفردة في العالم. .

طبيعة المعضلة:

للوهلة الأولى يبدو أن السبب الرئيسي في انكماش الحركة الاجتهادية في العصور الحديثة يتمثَّل في قلَّة القادرين على الاجتهاد وانحسارهم، وغياب الكثير من الشروط الفقهية التي مكَّنت الأجيال الأولى من تخريج ذلك الحشد الزاخر من المجتهدين.

إلا أنَّ التوغل قليلاً في البحث عن الأسباب يقودنا إلى شيءٍ آخر.. إن المعضلة الأساسية تكمن في الشرخ المحزن الذي أخذ يفصل بحركة تصاعديَّة مستمرة بين الشريعة والواقع.. ليس على مستوى السلطة، والمؤسسة فحسب، بل علىَ مستوى القواعد والجماهير وتفاصيل الحياة اليومية كذلك.

إن هذا الانفصال الذي نتج عن حشدٍ من العوامل المعقَّدة المتشابكة المحلية والعالمية، والتي ليس هذا مجال الحديث عنها بطبيعة الحال، هذا الانفصال الذي كاد أن يحصر المعطيات الإسلامية في دور العبادة ونطاق الأحوال الشخصيَّة، أو جانب منها بشكل أدق، جعل (الأقضية) التي تتطلب حلولاً يقدِّمها الاجتهاد لا تمثل (تحدِّيات) أمام المشرِّع المسلم، ولا تدفعه إلى نقطة التوتر الذي يقود إلى الاستجابة، كما كان يحدث أيام التوحُّد بين الشريعة والواقع.. إن الاستجابة في ظرف كهذا ستكون حركة في الفراغ.. نظريات معلَّقة في الهواء.. ترفاً فكرياً..

ربما.. ينظر المفكِّر المسلم فيجد المذاهب الوضعية التي أزاحت الشريعة، وحلَّت محلها في إدارة شؤون الواقع اليومي والتخطيط لحركته.. تهرع إزاء كل تحدٍّ لكي تكون استجابتها بمثابة تنفيذ عمليٍّ منظور، يتحرك في أرض الواقع، وتقدِّم له سائر الضمانات، وتوفِّر إزاءه سائر الشروط التي تمكنه من التحوُّل، بالاختزال الزمني المطلوب، إلى حركة مَعيشةٍ وتنفيذٍ يومي، وممارسةٍ على الأرض.. فما الذي بمقدور المجتهد المسلم أن يفعله سوى أن يقدِّم معطياته بصيغ افتراضات قد لا تتاح لها فرصة التحقق على الإطلاق؟

ثم إن التحديات نفسها تجيء في حالة الانفصال هذه.. في حالة هيمنة المذهب الوضعي على مجريات الحياة.. انبثاقاً عن معادلات لم تصنعها

تجربة إسلامية، ولا طرحت أرقامها وقيمتها ممارسة ذات بُعد دينيٍّ على الإطلاق.. وبمرور الوقت تتحوَّل هذه المعادلات من صيغها البسيطة إلى صيغٍ مركبةٍ تطرح المزيد من التحديات التي تكون حينذاك قد أنبتت عن أي جذرٍ إسلاميّ..

وتكون محاولة إيجاد حلولٍ اجتهادية لها.. جهداً في غير ما هدف.. تكون الاستجابة لها ـ ولنكن صرحاء ـ عبثاً أو خداعاً..

هذا هو الذي دفع عدداً من المفكرين الإسلاميين المعاصرين إلى طرح واحدة من المقولات المعروفة؛ التي لعبت دورها في سد المنافذ إزاء حركة الاجتهاد وتعليقه زمناً..

إنه لا اجتهاد يحمل جدِّيته وقدرته على الفعل والتحقُّق إلا حيث يكون الإسلام هو الحَكَم الأول والأخير في واقع الحياة وعلى سائر المستويات.. بدءاً من الجمهور وانتهاء بالسلطة، وإذا لم يتحقق الوفاق والتوحُّد بين الإسلام وبين بعدي الزمان والمكان، فإن المعطيات الاجتهادية لن تكون بحالٍ ذات عناء.

ولنا أن نتساءل هنا: هل يتوجَّبُ علينا أن نستسلم لهذه المقولة التي قد تحمل الكثير من عناصر القوة والإقناع، وتضع المزيد من المتاريس والعوائق في طريق الحركة الاجتهادية في العصر الراهن، بانتظار يوم قد لا يكون قريباً؟

أم أن علينا أن نندفع صوب الوجهة الأخرى، والتي يقول بها حشد آخر من المفكِّرين المعاصرين: أن تفتح أبواب الاجتهاد على مصاريعها، وأن ينزل الإسلام إلى الشارع والبيت والمؤسسة.. أن يكون حاضراً في كلِّ مكانٍ.. ومهما قيل من أن ما تشهده هذه الساحات إنما هي معطيات وضعيَّة تتمخَّض عن علاقات لم تكن للإسلام أيَّة كلمة فيها.. فإنه لابدَّ من

الاستجابة، ومن طرح الحلول ورسم برامج العمل.. فقد يكون في هذا وذاك إضاءة لأولئك الذين لا يزالون يبحثون عن أماكن لمواقع أقدامهم في ليل العصر الحالك.. وقد تكون ـ على أبعد الافتراضات ـ بمثابة حلولٍ جاهزةٍ لليوم الذي ستغيب فيه مأساة الانفصال المحزن هذا، ويعود التوحد من جديد بين الدين القادم من عند الله وبين شرايين الحياة وأوردتها..

إنها ـ والحق يقال ـ واحدةٌ من المعضلات الصعبة التي يتوجب على ملتقى كهذا، يجعل من مسألة الاجتهاد شاغله وإطار أنشطته، أن يجد لها الحل وأن يستجيب لتحدِّيها..

ولكن.. ألا يمكن القيام بنوع من التوفيق بين الوجهتين، تعتمد في سياقة الحجج المقنعة لدى كلٍّ منهما، ويتم تجاوز الحجج الضعيفة أو المتطرفة؟

ألا يمكن اللقاء عند نقطة وسط ينصبُّ فيها الاهتمام على تنفيذ حركة اجتهادية تعنى بالقضايا الكبيرة التي لا تزال معلقة تنتظر جواب المجتهد الإسلامي، وتتجاوز ـ مرحلياً ـ معالجة التفاصيل والجزئيات والمسائل الصغيرة؟

حركة يتم فيها اتفاق مسبق على سلَّم للأولويات، وتتحقَّق من خلاله القناعة التامَّة لكافة الأطراف بضرورة البدء بالعمل وفق برنامج مرسوم؟ ومن خلال هذا البرنامج يمكن التركيز على القضايا الملحَّة التي تتطلَّب حلولاً بسبب من ارتباطها الصميم بواقع المسلمين اليومي، أو بسبب من ثقلها التاريخي المعاصر.. أو غير هذا وذاك من الأسباب.. ومن خلال هذا البرنامج يمكن ـ كذلك ـ تجاوز الإلحاح على ملاحقة القضايا الجزئية الصغيرة ومحاولة وضع جداول فقهية تفصيلية قد تؤول ـ فعلاً ـ إلى نوعٍ من الترف الفكري المرفوض؟

نعم.. وبكل تأكيد.. يمكن أن يتمَّ التصالح بين الوجهتين لكي تحظى حركة الاجتهاد بقدرةٍ أشد على المضي صوب هدفها المرسوم..

إن رفض الاجتهاد، أو إقفال أبوابه، كما كان يدعى في عقود مضت، أمر مرفوض لأنه يؤول إلى تجميد فاعلية الفكر الإسلامي، وقدرته على التواصل والاستمرار والحضور العقيدي في صميم العصر.. وإن الانفتاح الكلي على كل جزئية أو صغيرة، رغم انبثاقها عن ظروف ذاتية وموضوعية لا علاقة لها بالإسلام البتة، ورغم التباعد المنظور بين التجربة الإسلامية والهيمنة الوضعية على المصائر والمقدرات.. أمر مرفوض أيضاً..

ويبقى من مهمات هذا الملتقى أن يرسم أبعاد موقع اللقاء هذا. ويحدد شروطه ومواصفاته، فيضع الأيدي بالأيدي، ويجمع الأشعة المتفرقة.. إذ قد آن الأوان لأن تلتئم ثانية كما بدأت أول مرة.. وحينذاك فقط سيعرف العالم كيف سيكون الاجتهاد الإسلامي قديراً على الإحراق والإضاءة في الوقت نفسه..

وما هذه الصفحات سوى محاولة واحدة، أو اقتراح محدود مما قد يتمخَّض عنه الملتقى في هذه السبيل..

موقع المعطيات الحديثة:

ولن نمضي خطوة أخرى إلى الأمام قبل أن نتساءل: ما هو موقع المؤلفات الفكرية الحديثة، ذات الطابع العام أو التخصصي، في خارطة المعطيات الاجتهادية الكائنة أو التي يتوجب أن تكون؟

ألا يتوجَّب أن نفسح لها المجال لكي تسهم في إلقاء الضوء على جوانب من الطريق الصعب الطويل؟ أليست هذه الأعمال ـ بحدِّ ذاتها ـ محاولات اجتهادية في هذا الجانب ـ أو ذاك ـ من فكر الإسلام عقيدة وشريعة وممارسة وحركةً تاريخية؟

إنه حتى أولئك المفكرين الإسلاميين؛ الذين رفضوا الانسياق وراء ضرورات الاستجابة للتحديات المعاصرة ذات الطابع المزيَّف، والجذور غير الإسلامية، والتراكيب والمواصفات الوضعية، حتى أولئك الذين كانوا ولا يزالون ينادون بوقف التدفُّق الاجتهادي لحين تكون الأرضية والمعادلات الإسلامية الصرفة كشرط أساسي للاجتهاد الجاد الملتزم، حتى هؤلاء وأولئك كتبوا الكثير عن هذا الجانب من الإسلام أو ذاك، وألَّفوا الكثير من الكتب.. وهي في مؤشراتها وحصيلتها النهائيَّة لا تعدو أن تكون اجتهاداً من نوع ما لطرح الحلول والتصوُّرات ومعالم الطريق، لهذه المسألة أو تلك من مسائل الحياة المتجدِّدة.. حتى وإن قدمت من مصادر أخرى لم يكن للإسلام دور في تكوينها، وحتى لو تحركت على أرضية لم تتح للإسلام فيها حرية الحركة والقول، وصلاحية إصدار الأحكام..

طبعاً.. فإن للاجتهاد شروطه، ولن يكون بمقدور أي كاتب أو مفكر مسلم أن يكون مجتهداً إلا بعد التحقُّق بالشروط الصارمة التي يفترضها هذا الحقل.. ولكن بعض ماقدمته هذه الأقلام، بل ـ ربما ـ الكثير منه، يمكن أن يرفد الحركة الاجتهادية، وينير أمامها الطريق.. ولنتذكر، على سبيل المثال لا الحصر، معطيات محمد أسد (ليوبولد فايس)، ومالك بن نبي وسيد قطب (رحمهما الله)، ومحمد قطب ومحمد الغزالي ومحمد البهي والسباعي والقرضاوي وسيد سابق، ومحمد أبي زهرة والمودودي (رحمهما الله)، والندوي.. وغيرهم.. لكي نعرف أن هذه المعطيات تضمَّنت (أطروحات) قيمة لا يمكن بحال تجاوزها، على الأقل كإضاءات، كاقتراحات، كبرامج عمل، كمؤشرات حركة... ونحن نسعى للتحقق بالفعل الاجتهادي المرتجى.. وإذن فلا بدَّ من أن نفسح أمامها المجال لكي تلعب دورها على خارطة الاجتهاد..

الحوافز الإيجابية للاجتهاد :

يتساءل المرء: لماذا الانقطاع في حقل الاجتهاد، والحوافز الإيجابية للفعل الاجتهادي الإسلامي قائمة كما كانت.. بل ـ ربما ـ بأكثر مما كانت دفعاً للحركة الاجتهادية إلى مواقع التمخُّض والصيرورة والعطاء؟

ونستطيع أن نضع أيدينا ـ بالتركيز المطلوب في مناسبة كهذه ـ على أشد هذه الحوافز فاعلية، وأكثرها تأثيراً في حركية الفعل الاجتهادي، وحتمية استمراريته الزمنية، وتحققه بالتغطية المكانية.. أي أن يصبح جزءاً أصيلاً من بنية الحركة التاريخية، لا ينفصل عنها، ولا يتوقف، ولا يكف عن الفعل والتواصل..

ويمكن أن نلمَّ شتات هذه الحوافز لكي نصوغها وفق اتجاهات ثلاثة، أو نضعها في هيئة مثلث متماسك، متساوي الخطوط، متناظر الزوايا، يتضمَّن حافزاً ذاتياً، وآخر عقيدياً، وثالثاً موضوعياً.

أولاً: الحافز الذاتي:

فأما الحافز (الذاتي) فيتمثَّل بصيغة عقل حركي فعال شكَّله هذا الدين، ودفع به إلى العالم شعلة متوقدة لاتعرف الانطفاء أو السكون، أو هكذا يجب أن يكون. ولقد تمَّت عملية التشكل هذه من خلال (نقلات) أساسية ثلاث: نقلة تصورية اعتقادية، وأخرى معرفية، وثالثة منهجية. ولنا أن نعرض لها هنا بقدر كبير من الإيجاز[١]:

أ ـ النقلة التصوُّرية ـ الاعتقادية:

ليس ثمة خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل، وكرمته، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة: تحويل التوجُّه الإنساني من التعدد إلى

---

(١) تحدثنا عن هذه المسألة بالتفصيل في كتاب (حول إعادة تشكيل العقل المسلم)، الفصل الأول.

الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون.. كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحسّ القريب.

لقد تحدَّث القرآن الكريم عن هذه النقلة، فقال: إنها خروج بالناس (من الظلمات إلى النور).. التحوُّل الكامل من الأسود إلى الأبيض، والانتقال من النقيض إلى النقيض.. وقال أيضاً بأن الإسلام جاء لتحرير بني آدم، وليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.. ونادى أكثر من مرة بأن الدين الجديد هو (الصراط المستقيم)، وما وراءه فليس سوى التيه، والاعوجاج، والضياع، والهوى والضلال.. ولن يقدر عقل مهما أوتي من فطنة على أن يعمل ويبدع ويعطي وهو يتخبَّط بالتيه ويكبَّل بالأغلال.

إن العقيدة الجديدة جاءت لكي تنقل الإنسان إلى السعة والعدل والتوحيد، هنالك حيث يجد العقل نفسه، وقد أعيد تشكيله بهذه القيم، قديراً على الحركة والفعل عبر هذا المدى الواسع الذي منحه إياه الإسلام، غير محكوم عليه بظلم من سلطة فكرية قاهرة ترغمه على قبول ما لا يمكن قبوله باسم الدين، متحققاً بالتقابل الباهر بين الإنسان والله.. حيث يملك وحده حق التوجه، والتعبد، والمصير..

ولكي ندرك البعد الشاسع لهذه النقلة التصوُّرية في مجال العقيدة؛ فإن لنا أن نستحضر في أذهاننا ممارسات العقل العربي في الجاهلية، وطرائق إدراكه للعالم، وصيغ تعامله مع ما (تصوره) القوى التي تهيمن عليه وتسيره.. ونقارن هذا بالمصافّ الذي احتله العقل المسلم بعد إعادة تشكيله بالاعتقاد الجديد.

لقد طرحت هذه العقيدة، أو بنيت بعبارة أدق، على حشد من القيم التصوُّرية كالربانية والشمولية، والتوازن والثبات، والتوحيد والحركية، والإيجابية والواقعية.. تلتئم وتتداخل وتتكامل لكي تشكل نسقاً عقيدياً ما بلغت عشر معشاره أية عقيدة أخرى في العالم، وضعية كانت أم دينية، ولن تبلغه أبداً.. وكما أن هذا النسق المحكم يمثِّل تطابقاً باهراً مع معطيات الفطرة البشرية في أصولها النقيَّة الحرَّة، فإنه يمثل في الوقت نفسه ذات التطابق مع معطيات العقل المحضة وتطلُّعاته وآفاقه..

إن التصوُّر الإسلامي نسيجُ وَحْدِهِ.. وإن المغزل الإلٰهي الذي حاكه بإعجازٍ يصعب تنفيذه على الإنسان، هو الذي عرف كيف يعيد تشكيل العقل الجديد، ويدفعه، في الوقت نفسه، إلى الحركة التي لاسكون بعدها..

لقد منحه الأرضية، وأعطاه الإشارة، وسنجده ينطلق بعدها لكي يصنع المعجزات.

ب ـ النقلة المعرفية:

وهي عمل في صميم العقل من أجل إعادة تشكيله بالصيغة التي تمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود بالحجم نفسه، والطموح نفسه، الذي جاء الإسلام لكي يمنحهما الإنسان.

منذ الضربة الأولى في كتاب الله.. الكلمة الأولى.. نلتقي بحركة التحوُّل المعرفيِّ هذه:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]..

(١) سورة القلم، الآيات: ١-٥.

وعبْر المسيرة الطويلة، مسيرة الاثنتين والعشرين سنة، حيث كانت آيات القرآن تتنزَّل بين الحين والحين، استمر (التأكيد) نفسه لتعميق الاتجاه، وتعزيزه، والتمكين للنقلة، وتحويلها إلى واقع يومي مَعِيش.. إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير، والتعقُّل والتفقُّه والتدبُّر.. إلى آخره.. منبثة في نسيج كتاب الله.. لم تخفت نبرتها أبداً هناك في العصر المكِّي، أو هنا في العصر المدني..

ليس عبثاً أن تكون كلمة (اقرأ) هي الكلمة الأولى في كتاب الله.. وليس عبثاً أن تتكرر مرتين في آيات ثلاث.. وليس عبثاً ـ كذلك ـ أن ترد كلمة (علم) ثلاث مرات، وأن يشار بالحرف إلى القلم: الأداة التي يتعلم بها الإنسان.. وبعدها وعبر المدى الزمني لتنزل القرآن، ينهمر السيل ويتعالى النداء المرة تلو المرة: اقرأ، تفكَّر، اعقل، تدبَّر، تفقه، انظر، تبصَّر.. إلى آخره.. ويجد العقل المسلم نفسه ملزماً، بمنطق الإيمان نفسه، بأن يتحوَّل، أن يتشكَّل من جديد لكي يتلاءم مع التوجُّه (المعرفي) الذي أراده الدين الجديد.

بل إن نسيج القرآن الكريم نفسه، ومعطياته المعجزة، من بدئها حتى منتهاها في مجال العقيدة، والتشريع، والسلوك، والحقائق (العلمية)، تمثل نسقاً من المعطيات المعرفية؛ كانت كفيلة، بمجرَّد التعامل المخلص الذكي المتبصِّر معها، أن تهز عقل الإنسان، وأن تفجِّر ينابيعه وطاقاته، وأن تخلق في تركيبه خاصية التشوف المعرفي لكل مايحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء.

لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خاصَّة لم تكن قد حظيت من (المعرفة) إلا بالقسط اليسير، مع جيل من الناس لم يبعد ـ بعد ـ عن تقاليد الجاهلية وقيمها وطفولتها الفكرية.. لكنه قدر بقوة الإيمان المعجون بالدعوة الجديدة، على أن يعلمهم فعلاً، وذلك بأن يعيد تشكيل عقولهم

لكي تكون قديرة على استيعاب المضامين الجديدة، مدركة للأبعاد الشاسعة التي جاء هذا الدين لكي يحرِّك الإنسان صوب آفاقها الرحبة... وما كان ذلك ليتحقق لولا إشعال التشوُّف المعرفي في العقل المسلم، ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل..

لقد انتهى عهد الاستسلام والسكون والرضا بأوساط الأشياء.. وجاء عهد القلق والحركة.. بحثاً عن الكمال الذي يليق بمعطيات الدين الجديد..

إن الإسلام لا يهتمُّ بالتفاصيل، ولكنه يسعى إلى تكوين (بيئة) عمل وإنجاز تتضمن كافة الشروط والمواصفات التي تمكنها من العطاء.. وهاهنا في حقل التوجه المعرفي تمكن الإسلام من خلق هذه البيئة.. فبعث أمَّة من الناس مازال عقلها يعمل ويكد ويتوهَّج، حتى أنار الطريق للبشرية يوم كانت تدلج في ليل بهيم..

إن النهار الذي أطلعته حضارة الإسلام الآتية، ما كان له أن يطلع لولا الشعلة التي مسَّت عقل كل مسلم، ودفعته إلى التألُّق وهو ينطلق لتعزيز يقينه الجديد.

جـ ـ النقلة المنهجية:

ترتبط هذه النقلة، بشكل ما، بالنقلتين السابقتين، وتنبثق عنهما في الوقت نفسه.. ونحن نعرف اليوم كم يلعب (المنهج) دوراً خطيراً في حركة الإنسان الفكرية والحضارية عموماً.. ونعرف أنهَ بدون (منهج) فليس ثمَّة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بذل من جهد وقدَّم من عطاء.. وسنرجع إلى ذلك مرة أخرى..

والنقلة المنهجية التي أتيح للعقل المسلم أن يتحقَّق بها، أن يتشكَّل وفق مقولاتها ومعطياتها، امتدت باتجاهات ثلاثة:

١ـ السببية: من خلال التمعُّن في نسيج كتاب الله؛ نجد كيف منحت آياته البينات العقل المسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود.. تربط وهي تتأمَّل وتبحث، وتعاين وتتفكَّر، بين الأسباب والمسببات، تسعى إلى أن تضع يدها على الخَيط الذي يربط بين الظواهر والأشياء في هذا الحقل أو ذاك، وفي هذه المساحة أو تلك.. لقد أراد القرآن الكريم أن يجتاز بالعقل العربي مرحلة النظرة التبسيطية المسطَّحة، المفكَّكة، التي تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت منقطعة معزولة منفصل بعضها عن بعض، وهي خلال ذلك لاتملك القدرة على الجمع، والمقارنة، والقياس، والتقاط عناصر الشبه وعزل عناصر التغاير.. لا تملك إمكانية التركيب والاختزال، والتركيز للوصول إلى الدلالات النهائية للظاهرة من خلال معاينة ارتباطاتها وعلائقها بالظواهر الأخرى.

ولقد تمكَّن القرآن بطرقه المستمر على العقلية التبسيطية: أن يعيد تشكيلها لتبعث من جديد بالصيغة التي أرادها لها: عقلية تركيبية تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التي تطلُّ من فوق على حشود الظواهر، بحثاً عن العلائق والارتباطات، ووصولاً إلى الحقيقة المرتجاة.

بل إن إحدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعه من أقصاها إلى أقصاها؛ هي التأكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه.. إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات؛ فإن العقل المؤمن لن يكون قادراً على التحقق بالقناعات الكافية، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة في الطبيعة والعالم والوجود أن تحدث فينا هزَّة الإيمان العميق المتمخض دوماً عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق.

لن يتَّسِع المجال لاستعراض الآيات التي نادت المسلمين مراراً للتحقق بهذه الرؤية التركيبية، والربط بين الأسباب، فهي كثيرةٌ جداً، وبخاصة في

العصر المكّي؛ حيث كانت ضرورات التربية العقيدية تقتضي التأكيد على تكوين عقليات كهذه.. تقارن وتركب وتربط بين الأسباب.

ومن خلال هذا التأكيد، ذي الارتباط العميق بالموقف الإيماني عموماً، أصبح العقل المسلم يرى في رؤية كهذه ضرورة من الضرورات، بل بداهة من البداهات.. وراح يمارسها صباح مساء، ويتمرَّن على الأخذ بها والعمل وفق شروطها، حتى غدت بالنسبة له تقليداً عقلياً سائداً، وغدا الكون والعالم والطبيعة والوجود ـ في مقابل هذا ـ سلسلةً من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق الأسباب.

لقد انتهى عهد التفكُّك، والعزلة، والتبسيط.. إنَّ الكون الذي هو تعبير عن إبداع الخالق، تشدُّه قوانين واحدةٌ، وأسباب واحدةٌ، ونواميس واحدة، تصدر عن إرادةٍ واحدةٍ.. ولن يتحقَّق فهمه أبداً ما لم ينظر إليه من خلال رؤية عقلية تعرف كيف تجمع وتلمُّ وتقارن وتختزل وتركب.. وصولاً إلى الحقائق التي تبغيها..

إن الكشف عن (السببية) والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشري، وإضافة قيِّمة مكَّنته من إعادة التشكل في صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع..

٢ـ القانونية التاريخية: ولأول مرة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشري؛ عن حقيقة منهجيه على درجة كبيَرة من الخطورة: أن التاريخ البشري لا يتحرك فوضى، وعلى غير هدى، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء، سواءً بسواءٍ.. وأن الوقائع التاريخية لا تتخلق بالصدفة، وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك..

القانون يحكم التاريخ. . تلك هي المقولة التي لم يكن النقاب قد كشف عنها قبل نزول القرآن. . إن كتاب الله يقدم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر ـ الاجتماعية ـ التاريخية، كما فعل (ابن خلدون) ـ فيما بعد ـ على سبيل المثال، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقَّوا إشارته تلك وبنوا عليها إلا بعد انقضاء عدة قرون. وهذا يتمثَّل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء، وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود (سنن) و(نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وانتقالها من حال إلى حال.

إن المنهج الجديد الذي يطرحه القرآن الكريم يؤكِّد أكثر من مرة على أن (التاريخ) لا يكتسب أهميته الإيجابية إلَّا بأن يتَّخذ ميداناً للدراسة والاختبار؛ تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلَّا على هداها. . إن القرآن يطرح على العقل البشري ـ إذن ـ ولأول مرة مسألة (السنن) و(النواميس) التي تسيِّر حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ، وعبر مسالكها (المقننة) التي ليس إلى الخروج عليها سبيل؛ لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري ومعطياته المحورية الثابتة فطرةً وغرائز، وأخلاقاً وفكراً، وعواطف ودوافع ووجداناً، ومن قلب العلاقات والوشائج، والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان، والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة والجغرافية، أو الوضع الاقتصادي؛ لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان، والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلباً وإيجاباً. ومن ثم فإنَّ حكمها على هذه (الحركة) يجيء منطقياً تماماً؛ لأنه أشبه بالجزء الذي هو من جنس (العمل) ومن خامه الأصيل، وعادلاً

تماماً؛ لأنه يكافئ الإنسان، فرداً وجماعة، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسوه، حتى لكأنَّ القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية، سلفاً، نتائجها التي ترتبط ارتباطاً صميماً بمقدماتها، اعتماداً على استمرارية السنة التاريخية ودوامها.

والقرآن الكريم لا يؤكِّد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب، ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ؛ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار، وأن تحسن التعامل مع قوى الكون والطبيعة، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه.

٣ـ منهج البحث الحسي ـ التجريبي: يمكن القول بأنه لا الكشف عن السببية، ولا القانونية التاريخية يعدل الكسب المعرفي القيِّم الذي أحرزه العقل المسلم خصوصاً، والعقل البشري عموماً، والذي تمثَّل بمنهج البحث الحسِّي ـ التجريبي الذي كشف النقاب عنه، ونظَّمه، وأكَّده، ودعا إليه: كتاب الله..

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصُّر بحقيقة وجودهم، وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسي) إلى ماحولهم، ابتداءً من مواقع أقدامهم، وانتهاء بآفاق النفس والكون، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب... وناداه أن يمعن النظر إلى ماحوله.. إلى خلقه.. إلى طعامه وشرابه.. إلى الملكوت من حوله.. إلى التاريخ وحركة الإنسان في الأرض.. إلى خلائق الله وآياته المنبثة في كل مكان.. إلى النواميس الاجتماعية.. إلى الطبيعة والعالم.. إلى الحياة الأولى كيف بدأت، وكيف نمت وارتقت.. ودعاه أن يحرِّك (سمعه) باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميِّز، فيأخذ أو يرفض، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان..

وانتقل القرآن خطوة أخرى؛ فدعا الناس إلى تحريك (بصائرهم) تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، لا حصر لها، ثم تتحمَّل مسؤوليتها في تنسيق هذه المدركات، وتمحيصها وموازنتها، وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذيَ تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة..

وتتوالى الآيات، تؤكِّد المرَّة تلو المرَّة، على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي الحياة البشرية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات، بفتحه هذه النوافذ على مصاريعها، سيتبوأ مركزه المسؤول خليفة في الأرض، وأنه بتجميد هذه الطاقات وقفل نوافذها يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد.. منزلة البهائم والأنعام.

وحشد آخر من الآيات، جاوز الخمسين، حثَّ على تحريك العقل، المفتاح الذي منحه الله بني آدم، والذي يتوجب اعتماده لكي تمضي الكشوف والمعطيات إلى غايتها. وآيات أخرى نادت بوجوب (التفكُّر) و(التفقُّه)؛ وهي خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، تجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً، مستعداً للحوار المسؤول إزاء كل ما يعرض له على صفحة العالم والوجود.

وأكَّد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن)؛ للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة، والموازنة والتمحيص، ولا يسعنا هنا استعراض جُلِّ ما ورد من آيات في هذا المجال، أو حتى الإشارة إليه، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (علم)، بتصريفاتها المختلفة، وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمئة والخمسين.

ومن ثم فلا يتصوَّرنَّ أحد أن الإسلام ما جاء إلا لكي يؤكِّد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب.. إننا بإزاء

آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزيئات والذرات.. إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان وبين الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله والتوغُّل قدماً في مسالك الطبيعة وأغاميضها.. بين تحقيق مستوى روحي عالٍ للإنسان على الأرض، وبين تسخير طاقات العلم لتحقيق نفس الدرجة من التقدُّم على المستوى المادي.. ولم يفصل الإسلام يوماً بين هذا وذاك.

والنتيجة المحتومة التي تمخَّضت عن هذه التحوُّلات الحاسمة عقيدياً ومعرفياً ومنهجياً، تشكُّل عقلٍ جديدٍ قديرٍ على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع..

وليس (الاجتهاد) سوى تعبير حركي متواصل عن هذا التشكل المبدع.. أو هذا ما يتوجب أن يكون..

ثانياً: الحافز العقيدي:

وأما الحافز العقيدي فيتمثَّل بالهندسة المعجزة الفذة للإسلام نفسه؛ حيث يتحقق التوازن بين كافة الأطراف، ويتم التوحُّد بين سائر الثنائيات.. وحيث تكون (الوسطية) التي ميزت هذا الدين، ليست موقعاً جغرافياً، ولا حيلةً مذهبيةً لتجاوز الصراع الحاد بين النقائض..

وإنما فعلاً حركياً دائماً للحضور في قلب العَالم.. في صميم التاريخ، وجهاداً مستمراً من أجل تجاوز الصراعات والنقائض، والتحقق بالتوحُّد والوفاق والانسجام.. إنها موقف عقائدي، واستراتيجية عمل ورؤية نافذة لموقع الإنسان في الكون والعالم.. القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن، وعدم الجنوح ذات اليمين أو الشمال.. ومن خلال هذه القدرة يتحقق

مفهوم الشهادة على الناس، لأنها تطلُّ عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور.. تشرف عليهم وهي تتحرك على الصراط.. وهي تمسك بالميزان الحق الذي تزن به كل صغيرة وكبيرة في هذا العالم؛ فتميز بين الطيب والخبيث، وتفرز الذهب من التراب، وتبين الحق من الباطل.

ورغم أن هذا (التوازن) قد تعرَّض، على المستوى التاريخي، للتأرجح بين الحين والحين، إلا أنه في إطار التجربة الإسلامية يظلُّ، من بين سائر التجارب الأخرى في العالم، أكثرها وضوحاً، والتزاماً، وتألقاً.

إنه الجدل الفعَّال الذي تتجاوز فيه الثنائيات، فلا يمحو بعضها بعضاً، ولا يحتوي أحدها الآخر، ولا يذوب خلالها الواحد بالآخر.. بل تظلُّ - أحياناً - على تقابلها الفعال وحوارها.. فمن خلال ذلك تواصل الحركة العقيدية قدرتها على الفعل والعطاء.. وتكون الديمومة التي ترفض التوقُّف والسكون.

إن الصلابة الغرانيتية لعقيدة الإسلام - إذا صح التعبير - تقابلها مرونة تتغير عبرها الخطوط والمساحات من عصر إلى عصر، ومن بيئة لأخرى. وإن (التشخصن) الذي يمنح الإسلام ملامحه الأبدية الدائمة يقابله انفتاح غير مترددٍ ولا متشنِّج إزاء كافة العقائد والمذاهب والحضارات.. وإن (الوحدة) التي تمنح الأطروحات الإسلامية جملتها العصبية الواحدة، ودماءها المتفردة، وبصمات أصابعها المتميزة، تتضمن في الداخل، عبر شبكة التفاصيل والجزئيات تنوُّعاً فذّاً وتغايراً مستمرَّ الحركة، لكنه يظلُّ في إطار الوحدة الشاملة لأنه يستمد دمه من شرايينها، وينفعل بجملتها العصبية، ويتلقى الأمر من دماغها المتفرِّد..

إن تغاير الزمن، أو المكان، قد يحدث تنوعاً وتغايراً، بل إنه لمن المحتوم أن يحدث هذا وذاك.. ولكن أي تنوع وأي تغاير هذا الذي

يتمخَّض باستمرارٍ عبر الزمان والمكان؟ إنها الأجنة المتباينة التي تبعث بها الحياة الإسلامية مختلفة متباينة.. لكن الرحم الذي يدفع بها واحد..

وثنائيات كثيرة أخرى قد تتصلَّب في مذاهب وأديان أخرى، وقد يطغى بعضها على بعض، ويخنق أحدها الآخر.. وقد يتحوَّل الحوار بينها إلى صراع دموي بالخناجر والسكاكين.. ولكنها في إطار الإسلام توظف دونما قسر أو تشنج أو افتعال؛ لخدمة الإنسان في العالم، والتحقق بشروط خلافته في الأرض، وتمنح الفعل الاجتهادي ديناميته فلا يتعثَّر.. أو يحرن.. أو يغيب..

الظاهر والباطن.. الحضور والغياب.. المادة والروح.. القدر والاختيار.. الضرورة والجمال.. الطبيعة وما وراء الطبيعة.. التراب والحركة.. الأخلاقية والمنفعية.. الفردية والجماعية.. العدل والحرية.. الوحي والتجريب.. الدنيا والآخرة.. والفناء والخلود..

إنه (التوازن) مرة أخرى.. التوازن في كافة الاتجاهات وعلى كافة الجبهات.. إنه بأطرافه المتقابلة وثنائياته المتوافقة.. بمثابة السدى واللحمة في النسيج المتوحِّد.. هذا التوازن الذي يتصادى هنا وهناك.. في النظرية والتطبيق على السواء.. إنه في صميم فكر الإسلام وفي قلب صيرورته التاريخية..

ثالثاً: الحافز الموضوعي:

وأما الحافز الموضوعي؛ فيتمثَّل بما يطرحه العصر الراهن من تحديات متزايدة تتطلَّب الاستجابات المستمرة.. وما يتضمنه من تراكم في الخبرة ـ على مستوى المنهج والموضوع ـ تتوجَّب الإفادة من معطياته لرفد حركة الاجتهاد.. أي حركة امتداد الرؤية الإسلامية وحضورها في قلب العالم.

قد يبدو نوعاً من المبالغة القول بأن مرور الزمن هو، بشكل من الأشكال، لصالح الإسلام، وأن الصيرورة الحضارية الشاملة يمكن أن تقدِّم أدوات عملٍ لخدمة الفكر الإسلامي.. ولكن الأمر كذلك ـ يقيناً ـ بمجرد أن نتحرك في الوقت المناسَب لتقديم هذه الاستجابة أو تلك، وللإفادة من هذه الخبرة أو تلك.

وقد نجد في آيتين كريمتين من كتاب الله مفتاحاً لهذا المغزى الزمني، فأما أولاهما فهي تلك التي تقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[1]، وأما ثانيتهما فهي تلك التي تقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2].

فإذا ما نفَّذنا هذا المنطوق على ما يجري في العالم من تمخُّض زمني؛ يطرح سيلاً متزايداً من التحديات التي يمكن أن يتألَّق الإسلام على ضوئها كما تألَّق أول مرة يوم أن خرج لكي يقابل العالم.. أو بعبارة أدق: يقابل حركة الزمن في العالم.. عرفنا مدى صدقه وإعجازه..

ومع هذا السيل المتزايد تراكم في الخبرة تتسع حلقاته يوماً بعد يوم في المناهج والمعطيات الموضوعية.. تراكم يمكن أن يمنحنا إنارةً أشدَّ، واستبصاراً أعمق، ويمكن أن يهبنا أدوات عمل فاعلة، ومبرمجة، تختزل بها حيثيات الزمن والمكان لتقديم النتائج الأدق والأسرع والأكثر عدداً..

وإذا كان بعضنا يرفض الاستجابة لهذا التحدي أو ذاك؛ لأنه ينبثق عن أرضيةٍ لا علاقة لها بما هو إسلامي صميم، ويؤول إلى معطيات لا علاقة لها بكل ما هو إسلامي صميم، فإن أحداً لايستطيع القول بضرورة التهرُّب من مناهج البحث الحديث، كأدوات عملٍ، أو برامج مساعدة، للوصول إلى

(١) يونس: ٣٩.
(٢) فصلت: ٥٣.

الحقائق، بحجة أنها قادمة من أناس لا علاقة لهم بالإسلام من قريب أو بعيد..

إن (الكمبيوتر) ابتكار غربي، أداة قدمها للناس عقل وضعي.. ولكنها في نهاية الأمر أداة محايدة، يمكن أن توظف لخدمة كل عقيدة أو مذهب أو دين.. ويمكن أن تعتمد لطرح المزيد من المعطيات وبلورتها وإيضاحها على مستوى كافة العقائد والأفكار.

ونحن نتحدَّث عن حوافز الفعل الاجتهادي، لن يستطيع أحد أن ينكر أهمية هذه الأداة لهذا الفعل، وتمكينها إياه من اعتماد معلومات مصنَّفة تصنيفاً دقيقاً للوصول إلى نتائج أقرب إلى الحقيقة، ومعطيات ألصق بالمطلوب..

إن هذه الأداة تعتمد منذ سنين في مجالات علوم الحديث المختلفة ذات (المعلومات) الكثيفة المتشابكة.. وربما تكون قد اعتمدت في مجالات علوم القرآن وغيرها من العلوم الدينية أو الإنسانية.. أفلا يمكن القول بأن (الكمبيوتر) كرمز مكثَّف لمعطيات الصيرورة الحضارية، يعطينا مثلاً على ما يمنحنا إياه تراكم الخبرة من إعانات وحوافز لتوسيع نطاق الحركة الاجتهادية في العالم المعاصر؟

ومع تزايد التحدِّيات وتراكم الخبرة؛ هنالك مايرتبط بهما، ويحفز ـ هو الآخر ـ على تحديد موقف اجتهادي في مواجهة العالم.

إنها تجربة الحياة المترعة بالمرارات والآلام، والتي بيَّنت للإنسان الغربي ومن ينحو منحاه، كيف آلت إلى الفشل والخيبة سائر التجارب التي قادتها ورسمتها مذاهب وضعية، أو أديان محرَّفة ما أنزل الله بها من سلطان.

إنه عذاب «يومي» لا يمكن أن تغطي عليه إنجازات الحضارة الغربية، أو المدنية الغربية بعبارة أدق، لأن عذاب الإنسان المعاصر لا يمكن أن يعالَج

بالسيارة أو البراد أو التلفزيون.. قد تعينه هذه وقد تنسيه، ولكن الأزمة تظل ما دام المريض يتنفَّس ذات الهواء المسموم المترع بالجراثيم والدخان.

وإذا كان رجل الشارع لا يستطيع أن يعبِّر بشكلٍ واضحٍ دقيقٍ عن هذا العذاب؛ فإن الكثيرين من مفكِّري الغرب، أدبائه وفنانيه، ما كانت معطياتهم سوى تعبير مؤثِّر عن هذا العذاب..

وبمرور الوقت تتزايد العذابات وتتعقَّد وتتشابك، ويزداد الإحساس بالألم والتعاسة، وتزداد معهما الأصوات التي تنادي بلسان الفكر حيناً، وبلسان الفن والأدب، أحياناً، بضرورة البحث عن البديل والتحقق به..

هاهنا.. يتوجَّب أن يتقدَّم المجتهد المسلم لكي يقول كلمته إزاء كلِّ ألمٍ.. ويمنح جوابه لكل مريضٍ أو مأزومٍ..

وهاهنا ـ مرة أخرى ـ يبدو مرور الزمن أداة مساعدة للتحقق بفاعلية أكبر للفكر الإسلامي، وبحضور أشد كثافة لحركته الاجتهادية..

المنهج والآفاق:

أولاً: أهمية المنهج:

إن قضية (المنهج) يتوجَّب أن تأخذ مكانة متقدِّمة في سلَّم الأولويات بالنسبة للفكر الإسلامي المعاصر عموماً؛ إذا ما أريد لهذا الفكر أن يتجاوز (السلبيات) التي يعاني منها، والتي أخذت تتراكم بمرور الوقت، فتزيد من قيوده وأغلاله، وتعتِّم عليه الأفق، فلا يكاد ـ أحياناً ـ يرى الطريق التي يتوجَّب عليه أن يقطعها وصولاً إلى الأهداف.

إن هذا (الكم) المتضخِّم من العطاء الفكري؛ لن يكون بحال إضافةً ذات غناءٍ لمكتبتنا الإسلامية وحياتنا المعاصرة، ما دام في كثير من مساحاته لا يلتزم رؤية منهجيةً واضحة الأبعاد، محددةَ المفردات، بينةَ الملامح مثبتة الأهداف.

إن القوم في عالم الغرب يغزوننا اليوم بأكثر من سلاح. . وإن (المنهج) الذي يستهدي بمقولاته ونظمه معظم المفكرين أفراداً ومؤسسات، لهو واحد من أشد هذه الأسلحة مضاءً في تمكينهم من التفوُّق علينا، وفرض فكرهم في ساحاتنا الثقافية كافة.

هم منهجيون في كل فعل أو ممارسة، بغضّ النظر عن مدى سلامة هذا المنهج، وصدق مفرداته، وصواب أهدافه التي يتوخَّاها. . منهجيون وهم يتحاورون ويتناقشون، منهجيون وهم يكتبون ويبحثون ويؤلفون. . منهجيون وهم يدرسون ويقرؤون ويطالعون. . إن (المنهج) بالنسبة للمثقف الغربي يعني ضرورة من الضرورات الفكرية، بل تقليداً من التقاليد وبداهة من البداهات. . وبدونه لن تكون الحركة الفكرية بأكثر من فوضى لا يضبطها نظام. . وتخبُّط لا يستهدي بهدف، ومسيرة عمياء لا تملك معالم الطريق. .

ونحن ـ إلى عهد قريب ـ على النقيض من هذا في الكثير من أفعالنا وممارساتنا. . بلا منهج في حوارنا ومناقشاتنا. . بلا منهج في كتاباتنا وأبحاثنا وتآليفنا. . بلا منهج في دراساتنا وقراءاتنا ومطالعاتنا.

لكأن الرؤية المنهجية التي منحنا إياها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قد غامت علينا، وأفلتت مقولاتها من بين أيدينا، وتلقَّفها القوم، هناك، كما تلقَّفوا الكثير من معطياتنا الثقافية، فذكروها ونسيناها، والتزموا بها وتركناها، وتحققوا بحضورها الدائم، وغبنا نحن عنها أو غابت هي عنا؛ فكان هذا الذي كان. .

ولكأن (الخطط الخمسية) التي قبسناها عنهم في أنشطتنا الاقتصادية هي الخطط الوحيدة التي يمكن أن تؤخذ عنهم من أجل وضع مناهج عمل لممارساتنا الاقتصادية تتضمَّن المفردات، ووحدات الزمن المطلوبة،

والأهداف، في سياق استراتيجية بعيدة المدى قد تتحقَّق بعد عشر من الخطط الخمسية أو عشرين.

أليس ثمة مجالات أخرىٍ، غير الاقتصاد، أو مع الاقتصاد، يتوجَّب أن يبرمج لها، وأن توضع لها الخطط والمناهج الزمنية المحددة، الصارمة، لكي تصبَّ على هدى وبينة في بحر الأهداف الاستراتيجية لمسارنا الثقافي؟

إن اعتماد المنهج في أنشطتنا الفكرية ليس اقتباساً عن حضارة الغرب بقدر ما هو رجوع إلى الجذور والتقاليد الأصيلة التي صنعناها نحن على هدي كتاب الله، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومعطيات أبناء هذا الدين زمن تألقهم الحضاري.

وإن حيثيات الصراع الراهن مع الحضارة الغربية تتطلب فيما تتطلب أن يكون لنا منهج عمل فكريٌ يمكننا ـ من خلال النظم الصارمة التي يلزمنا بها ـ من الأخذ بتلابيب القدرة على الفاعلية، والتحقق بالريادة والكشف والابتكار، والإضافة والإغناء. أن نكون ـ باختصار ـ أنداداً للفكر الغربي، قديرين على أن ندخل معه في حوار يومي.. وأن نتفوق عليه..

إن العقيدة التي نملكها، والمضامين الثقافية التي تخلقت عبر تاريخنا الطويل في مناخ هذه العقيدة.. تعلو، بمسافات لا يمكن قياسها، على عقائدهم وفلسفاتهم ورؤاهم ومضامينهم الثقافية.. هم يقولون هذا مراراً، ويؤكدونه تكراراً قبل أن نقوله نحن ونؤكده، وبعده..

والذي يعوزنا هو المنهج، هو طرائق العمل الاستراتيجي المبرمج المنظَّم المرسوم.. وحينذاك فقط يمكن أن نطمح ليس إلى تأصيل ذاتنا الثقافية، وتحصينها ضد عوامل التفكك والغياب والدمار، فحسب، بل إلى التفوُّق على ثقافة الخصم واحتوائها، باطراح دمها الأزرق الفاسد، والتمثُّل بدمها القاني النظيف..

إن المنهج يعني في نهاية التحليل: حشد الطاقات وتجميعها، والتنسيق بين معطياتها؛ لكي تصبَّ في الهدف الواحد، فتكون أغنى فاعلية، وأكثر قدرة على التجدد والإبداع والعطاء..

لقد أكَّد القرآن الكريم والحديث الشريف هذا المعنى أكثر من مرة.. وحذَّرنا نبينا عليه الصلاة والسلام من أن الذئب لا يأكل من الغنم إلا الشياه القاصية..

إن العدسة (المفرِّقة) تبعثر حزمة الضوء، فتفقد قدرتها على الإحراق.. أما العدسة (اللامَّة) فتعرف كيف تجمع الخيوط لكي تمضي بها إلى البؤرة التي تحرق وتضيء..

إن المنهج هو هذه العدسة اللامَّة، وبدونه لن يكون بمقدور مئات الكتب التي تطرحها مطابعنا سنة بعد سنة أن تمنحنا (النار) التي نحن بأمسّ الحاجة إليها في صراعنا الراهن.

ثانياً: اقتراحات بصدد العمل:

آن الأوان ـ إذن ـ لتجاوز الارتجال في العمل، واعتماد منهج مرسومٍ بدلاً من ذلك، في عصرٍ غدا فيه المنهج، أو البرمجة، بداهةً من البداهات في أيَّة ممارسة جادة، أو نشاطٍ ثقافيٍّ أو مدنيٍّ هادف.

إن الطاقات الفردية الموزعة يمكن أن تمنحنا نتائج معينة على هذا المستوى أو ذاك، ولكنها نتائج ذات فاعليةٍ محدودةٍ يصعب عليها تحقيق تغطيةٍ شاملةٍ للموضوع الذي تعالجه، أو المعضلة التي تسعى لحلها.. وإننا بأمسّ الحاجة في ميدان الفعل الاجتهادي إلى أنشطة جماعية، وأعمال مبرمجة، وخطوات مرسومة مدروسة؛ من أجل تجميع الطاقات الفكرية الإسلامية؛ للتحقق بفاعلية أكبر، ولتجاوز الازدواجية والارتطام والتبذير والتناقض والتفتت.

ثمة مقترحات ووجهات نظر عديدة قد تخطر على البال بصدد وسائل تنفيذ أنشطة اجتهادية جماعية على هذا المستوى.. وستكتفي هذه الورقة بالإشارة ـ فحسب ـ إلى بعض هذه المقترحات.. فعسى أن يكون الإخوة المشاركون قد طرحوا الكثير غيرها، ومن زوايا نظرٍ متعددةٍ، الأمر الذي يزيد صيغ التنفيذ تنوعاً وشمولاً، واستكمالاً للأسباب، سيما بعد تقليبها على وجوهها مناقشةً وحواراً..

أولاً: التخطيط لفهرسة موسوعية دقيقة وشاملة لمعطياتنا الفقهية (التاريخية) حسب الحقول والأبواب والمواضيع، يعهد بوضعها وتنفيذها ـ على مراحل زمنية مرسومة ـ لعدد من الحلقات، أو لجان العمل التي يتميز أعضاؤها بكونهم على قدر كبير من التضلُّع في حقول اختصاصاتهم، فضلاً عما يجب أن يتميزوا به من أمانةٍ وإخلاصٍ والتزامٍ.

إن محاولات من هذا النوع سبق وأن طرحت للعمل، فقطع بعضها شيئاً من الطريق، ثم ما لبث أن توقف لهذا السبب أو ذاك، وعقم بعضها الآخر عن أن يلد شيئاً.. أما بعضها الثالث فلا يزال يواصل الطريق، ولكن ليس بالصيغة الطموحة التي تتوخّى الشمول الموضوعي، وتسعى في الوقت نفسه إلى استقطاب كافة الطاقات الفقهية على مدى عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه.. ولربما يكون بمقدور (الملتقى) أن يتبنَّى ـ ولو بصورة مبدئية ـ خطوة كهذه جديرة بالاهتمام، من أجل وضع الخطوات الأولى على طريق الفعل الاجتهادي الصحيح المبرمج، المرسوم، بعد قرون من الفوضى والارتجال.. والضياع.. ولن يعدم مشروع كهذا مصادر طيبة لإدارته وتمويله في عصر الفائض المالي العربي والإسلامي؛ الذي توجب أن يبحث عن مشاريع كبيرة لإنفاقه بما يخدم تطلعات هذه الأمة ووجودها المتخصص المتميز بين الأمم. إن هذه الفهرسة ستضع المفاتيح السهلة في أيدي

الباحثين والمجتهدين؛ لكي يعرفوا مواقع خطواتهم وهم يتجوَّلون عبر معطيات فقه مزدحم كثيف، ولكي يحصلوا على الأطروحات التي تمكنهم من العمل بالسهولة والسرعة التي تمنحهم إياها وسائل التركيز والاختزال والبرمجة الحديثة.

واستمراراً لهذا السياق لابدَّ من تنفيذ محاولةٍ لتركيز واستخلاص الدلالات والمعلومات الأساسية في تلك الغابة المزدحمة من المعطيات، من أجل تهيئتها للخزن، وتحويلها إلى رموز ومعادلات جاهزة للتعامل مع أحدث الأجهزة العلمية التي تستهدف الاختزال والتنسيق في الأنشطة العلمية كافة.

ثانياً: تحقيق الخطوات نفسها بصدد المعطيات الفكرية الإسلامية الحديثة والمعاصرة بعامة، والتي سبق وأن قلنا: إنها تتضمن أطروحات فقهية قيمة، أو إسهامات جادة في حقل الاجتهاد، وقد تتضمن ـ كذلك ـ وجهات نظر واقتراحات ذات قيمة بصدد موضوع الاجتهاد. هذا إلى أن معطيات كهذه تكسب قيمتها ـ ابتداءً ـ من كونها محاولات للتعامل مع (العصر)، ولتحقيق حضور إسلامي فعال في نسيجه.. ولتمكين الإسلاميين في كل مكان من التحاور المفتوح مع كل ما يطرحه العصر من قيم وعلاقات ومؤسسات حضارية بعامة.

وبهذا يمكن اعتبار الكثير مما كتب في هذه الدائرة إسهاماً مباشراً في حركة الاجتهاد، يستهدف تقديم الاستجابات المتتالية للتحديات التي تطرحها صيرورة القرن العشرين الحضارية، بل إن بعض هذه المؤلفات، أو بعض فصولها على الأقل، يمكن أن تعتبر «اجتهاداً» مخلصاً لتقديم الجواب، رغم أنه قد تعوزه بعض الشروط أحياناً، ولكنه في خطوطه العريضة، وربما في تفاصيله، يضيف رصيداً طيباً إلى هذا الحقل.

ثالثاً: منذ عقود عديدة وبعض المفكرين الإسلاميين يطرحون معضلة الانقطاع الاجتهادي لفترات زمنية متطاولة، كحاجز يقف أمام استعادة الحركة الاجتهادية قدرتها على الفعل والتعصير والاستمرار.. فلو أن الاجتهاد الإسلامي لم يتوقَّف البتة، واستمر على فاعليته في مجابهة تطورات الحياة المستجدة، لكان الحال غير الحال، ولكانت الدعوة إلى التحقق بحضور اجتهادي فعال في قرننا هذا أمراً ممكناً بل ميسوراً.

وليس هذا مجال البحث في أسباب التوقُّف المحزن ذاك.. ربما يكون غياب الحكم الإسلامي بصيغه الحركية الحية.. ربما يكون الانكسارات الحضارية لعالم الإسلام.. ربما يكون غياب العقل الإسلامي الفعال، وانكماشه، وتيبسه.. ربما يكون الاستنزاف الذي تعرض له عالم الإسلام عبر غزوتي الصليبيين والتتار المدمرتين.. وما أعقبهما من استنزاف استعماري أشد هولاً ودماراً.. ربما يكون لهذه الأسباب مجتمعة الدور الحاسم في هذا المصير الذي آلت إليه حركة الاجتهاد.. والمهم هو كيف يتم تجاوز (الفراغ)، وتحقيق التواصل البنائي المطلوب بين المعطيات الاجتهادية فيما قبل الانتكاس، وبينها في قلب القرن العشرين؟

إن المرء ليتساءل هاهنا: هل من المحتوم ملء هذا الفراغ لكي تكون انطلاقتنا الاجتهادية الجديدة متحققة بشروط التواصل المطلوب؟ ألا يمكن أن يعتبر المجتهد المعاصر نفسه (حراً) في أن يبدأ من جديد لمجابهة تحديات جديدة، كما بدأ سلفه من جديد في مجابهة التحديات الجديدة؟

صحيح أن محاولة ملء الفراغ، وتحقيق الاستمرارية الاجتهادية، ستمكن المجتهد المعاصر من أن يبني معطياته على أسس صحيحة، وأن يملك اجتهاده شخصيته المتميزة المتواصلة التي لا تقطّع فيها ولا كسور ولا غياب.. ولكن هذا الأمر ـ ربما ـ ليس قدراً مقدوراً.. إنما قَدِر العقل

الإسلامي المعاصر أن يجابه التحديات، وأن يتفوَّق عليها.. وأن يحقق استجابات ناجحة لكل الأقضية التي تعترضه.. أن يساعد على تنفيذ الحضور الإسلامي في قلب العالم الراهن.. إنه بهذا يقتدي بأسلافه الذين خرجوا يوماً إلى العالم لكي يجابهوا تحدياته ومشاكله، ولكي يجعلوا عقيدتهم حاضرةً في سدى نسيجه ولحمته، واضعة بصماتها على كل ممارسة وفاعلية في مشارق عالم الإسلام ومغاربه.

ومع ذلك فقد يكون بالإمكان تجاوز المعضلة، وتنفيذ الاقتراح آنف الذكر بملء الفجوة، وتحقيق التواصل بين الحركتين من خلال مبادئ وصيغ وشروط يتم الاتفاق عليها سلفاً؛ لكي تكون جانباً من فاعلية الجهد الجماعي المرتجى لدفع حركة الاجتهاد وتوسيع آفاقها، واستعادة قدرتها على الحضور.

رابعاً: تصميم خارطة معمارية معاصرة للتصور الفقهي الاجتهادي وآفاقه، تستمد عناصرها من:

أ ـ المعطيات المتأنية التي ستتمخَّض عنها الخطوات الثلاث السابقة.

ب ـ طبيعة التحديات المعاصرة على المستويات كافة؛ من خلال سلَّم أولويات يتقدَّم فيه الأهم على المهم على الأقل أهمية، وتتولى أمره لجان عمل دائمة، أو مؤسسات تكون مهمتها ـ كذلك ـ ملاحقة المستجدات، وإدراجها وفق صيغها النمطية على الخارطة التي يتوجب أن تظل مفتوحة لتقبل المتابعات الجديدة.

جـ ـ تحقيق قدر من الوفاق المرن بين النظرية والتطبيق، أي بين تقديم حلول جاهزة للعمل على أرضية الواقع، وأخرى تنتظر التجربة على هذه الأرضية؛ من أجل تجاوز مقولة «لا اجتهاد إلا في مواطن التنفيذ».

د ـ تجاوز التشنج على الجزئيات والتفاصيل الدقيقة، وجعل الاهتمام ينصب على الكليات ذات الطابع النمطي الذي يمكن أن يقاس عليه ما يحتويه أو يشابهه من تفاصيل وجزئيات.

هـ ـ ولا بأس من الاتفاق مبدئياً على طرح برنامج عمل مرحلي لتنفيذ الاجتهاد على عدد محدد من المسائل الملحَّة؛ التي تقتضي حلولاً، من مثل طرح تصوُّر اجتهادي لما يتوجب أن يكون عليه المجتمع المسلم في نهاية القرن العشرين، وذلك بتحديدٍ مدروسٍ لكافة أنماط العلاقات الاجتماعية، بما في ذلك الموقف من الأنشطة والمؤسسات المالية والاقتصادية، والتي تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.. إلى آخره.. مما يمكن أن يتم الاتفاق على أولويته في العمل.

خامساً: ولابد، قبل هذا كله، من القيام بدراسة متأنِّية للجغرافيا الفكرية لعالم الإسلام، من أجل حصر كافة الطاقات الإسلامية، وتوزيع المهمات عليها وفق توجهاتها واختصاصاتها ونقاط تألُّقها وعطائها.. ومن أجل فتح باب الحوار بين هذه الطاقات المتباينة؛ للتحقق بأكبر قدر من الوضوح في الرؤية، وتجاوز خطيئة النظرة أحادية الجانب، وجعل كافة المذاهب الاجتهادية تدلي بدلوها في مجرى العطاء المرتجى.

إن هذه الخطوة الضرورية، لا تضمن شروطاً أكثر توفيقاً للعمل الاجتهادي فحسب، ولكنها ستسهم في تعزيز الوحدة بين مفكري عالم الإسلام من خلال جدل دائم فعَّال، وإسهامات اجتهادية متواصلة.

وهو ـ بحق ـ هدف عزيز، في عصر التفكُّك والتباعد والعزلة، حيث تعتمد الأسلاك الشائكة لكي تقطع ما بين المفكِّر والمفكِّر، وتعزل الإنسان عن الإنسان.

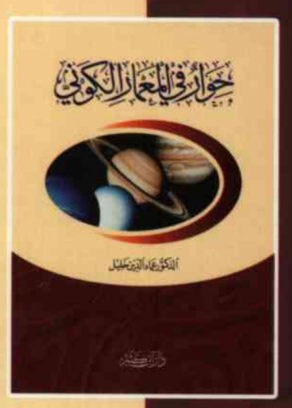
ولئن لم يفعل (الملتقى السابع عشر) إزاء هذا كله، بأكثر من فتح الأبواب الموصدة، ووضع الخطوات الأولى على الطريق الصحيح.. فكفى به نجاحاً وتوفيقاً..




فهرس الموضوعات







يعرض هذا الكتاب لجملة من القضايا المعاصرة والملحّة، في الفكر والحياة. وتتحرّك بحوثه ومقالاته على مستويين، يتمثّل أولهما في تأكيد الموقف الإسلامي في عدد من التجارب والخبرات، ويتمثّل ثانيهما في نقد معطيات الفكر الغربي وإسقاطاته المضلّلة على الحياة، والتأشير على مظان تهافته وتناقضه، والخلوص إلى أن الموقف الإسلامي من قضايا الحياة والوجود، ومغزى التجربة البشرية في العالم، هو الموقف الوحيد القابل للاستمرار، والذي ينطوي على توازنه وشموليته وموضوعيته.



دمشق : ص.ب. 311
بيروت : ص.ب. 113/6318
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com